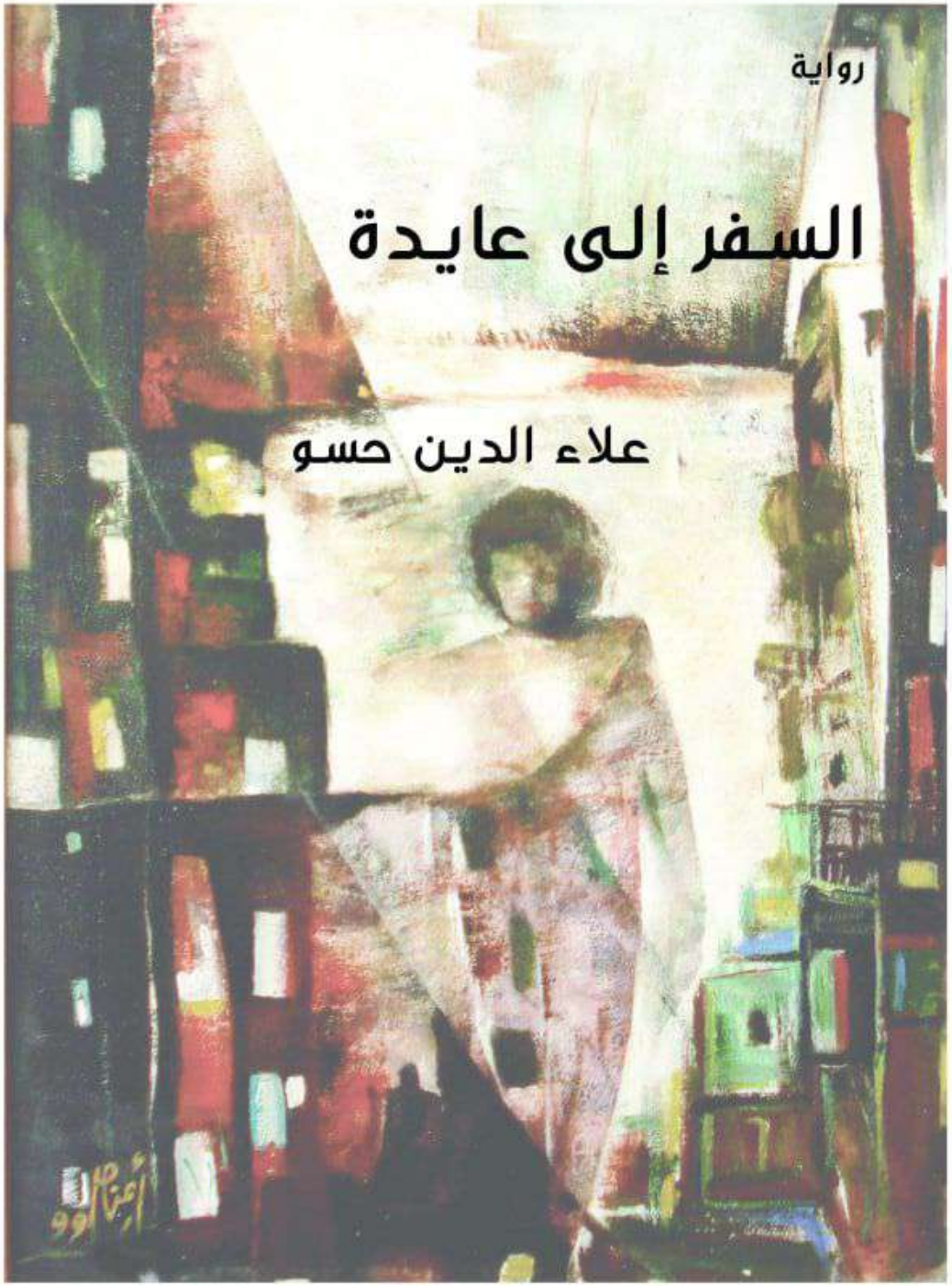

علاء الدين حسو

السفر إلى عايدة

علاء الدين حسو
روائي واعلامي, من كتبة: مجموعة قصصية بعنوان عمى الوان عن دار نون في حلب عام 2011، و كتابان في الترجمة من التركية إلى العربية وهما كتاب الوعي والمعرفة شباط 2015 ، و كتاب وعي الاخرة للكاتب التركي والمؤرخ حسين أوز هازار صدر عام 2017. والكترونيا: صدرت له رواية " البناء السابع" عن دار ميسلون 2019، و " قلعة ابن خلدون" عن دار حروف منثورة 2014 ، عرضت له مسرحية بعنوان (الكيناموس) في عنتاب من قبل فرقة المسرح السوري عام 2015.

السفر إلى عايدة

"الحياة مجموعة أسفار. كلّ لحظة في الحياة سفر. النّفَسُ أسفار. ذهاب وايابٍ. كلّ زفرة سفرة، كلّ شهقة سفرة، لها محطة انطلاق ولها محطة نزول. لا سفرة تُكرر أخرى وإن تشابهتا، فاللجوء والهجرة والنزوح والنفي والتشرد والتسكع والطرد والرحلات والسياحات كلها تنقلات - طالت أو قصرت - من مكان إلى مكان آخر، كذلك المواجع والمآسي، كذلك الأفراح والأتراح، كذلك الحربّ والسلم، وكذلك الحبّ. "
المستشار زكريا العاشج

Rimar Academy

رواية

السفر إلى عايدة

علاء الدين حسو

السفر إلى عايدة

عنوان الكتاب	السفر إلى عايدة
الرقم الدولي	978-605-73553-8-6
المؤلف	علاء الدين حسو
تصميم الغلاف	رهف تعلو
لوحة الغلاف	الهروب، محداة من الفنان التشكيلي أيمن الناصر
تاريخ النشر	٢٠٢٢ م
عنوان دار النشر	أكاديمية ريمار، أكسراي، الفاتح، استنبول

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

" الحياة مجموعة أسفار. كلّ لحظة في الحياة سفر. النَفَسُ أسفار. ذهاب وإياب. كلّ زفرة سفرة، كلّ شهقة سفرة، لها محطة انطلاق ولها محطة نزول. لا سفرة تُكرر أخرى وإن تشابهتا، فاللجوء والهجرة والنزوح والنفي والتشرد والتسكع والطرد والرحلات والسياحات كلها تنقلات - طالت أو قصرت - من مكان إلى مكان آخر، كذلك المواجع والمآسي، كذلك الأفراح والأتراح، كذلك الحربّ والسلم، وكذلك الحبّ . "

المستشار زكريا العاشج

المحطة الأولى مطار عينتاب

بدأ (المستشار) يراقب الأجساد التي تنافس حقائبها على تخطي الحاجز الأمنيّ الأول، لتحجز أو تثبت حجزها وترسل أمتعتها الثقيلة إلى شحن الطائرة، وتنتظر لحظة اجتياز الحاجز الأمني الثاني للوصول إلى البوابة المطلة على مدرج المطار، في صباح تموزي حار، يزيد من لهبه بعض الأجساد التي تحايلت على القيود لتهوية مناطق رطبة تخنقها القوانين، تشعرك بتوقها للحرية، وللحرية ثمن لابد من دفعه؟ وتحمّل نتائجه؟ ومعانٍ وأنواع مختلفة، تفسر بأكثر من وجه، ولكن لها تعريف ومفهوم محدد هو التخلص من قيد أو أسر ما، وبالنسبة للمستشار هو (عايدة) عايدة التي تنتظره في إسطنبول بعد كل هذا الغياب وهذا العذاب. أخيرًا سيحقق الحلم ويرى العلامة التي قلق منها والتي حاول طردها من هواجسه، لكنها بقيت كشاهد قبر مفتوح ينتظره، تلك العلامة التي تدل على أنه في النهاية ستكون الحبيبة في حضن المحبوب. نفض المستشار الخاطر السّيء وتقدم لحجز بطاقته وتثبيت مقعده محدثًا نفسه: "ماذا تخبّيُ لنا يا تموز؟"

يعرف المستشار اهتمام عايدة بشهر تموز، ولم يدرك السّر تمامًا، ربما سيعرف حين يقابلها، سيقولها لها: " أخبريني لماذا تموز؟" ولا يعتقد – وإن كان لا يستبعد – بأنّه سيعيش مأساة تشبه مأساة إله الخصب تموز، حيث ضحت به زوجته عشتار في لحظة زائفة حين رأته سعيدًا متربّعًا على عرشها فأمرت العفاريت بخطفه ونقله إلى

عالم الموت، ثم ندمت وتم الاتفاق على بقائه في الموت ستة أشهر تبدأ في نهاية الصـــيف، ليموت ثم يعود في الربيع. ولا يهتم بتموز كونه شهر الحر والقيظ (ثيرميدور)، الشهر الحادي عشر في التقويم الجمهوري الفرنســي الذي اعتمد خلال الثورة الفرنســية، وذات ليلة، حدثه (الأســتاذ) –مثله الأعلى الذي فقده وهو في أمس الحاجة إليه – عن الثورة الفرنســية وعن الانقلاب الذي حصـــل داخلها وأطاح بأبرز شـــخصـــية جدلية فيها، ذلك المحامي الذي اعتبره البعض المنظر الأول للثورة وبعضـهم يراه رمزًا للإرهاب في تلك المرحلة من عمر الثورة الفرنسية، وكانت سـهرة مطوّلة من السـهرات الأسـبوعية تحدث فيها الأسـتاذ عن انقلابات تموز في العراق ومصـر وسـوريا وكيف لعبت دورًا في شـلّ الحياة السـياسـية والاقتصـادية وحدّت من التطور والنمو. شـهر تموز مقلق بالنسـبة للمسـتشـار زكريا، وهو لا يؤمن بالتطوير ولكن، غالبًا الأحداث الجسـيمة بالنسـبة له يصـادف حدوثها في هذا الشــهر. في هذا الشــهر ماتت جدته، كذلك والدته، وفي هذا الشهر نزح من قريته، وفي هذا الشهر غيّر مهنته.

تقدم المسـتشـار بسـرعة نحو كوّة حجز التذاكر، سـاعدته على ذلك خفّة حمله، وبسـاطة ملابسـه. كان يرتدي بنطال جينز وتي شـيرت أبيض اللون وينتعل حذاءً رياضـــيًا متوســـط الجودة، وعلى ظهره حقيبة رياضـية جيدة، وضـع فيها حاجاته الضـرورية جدًا، زوج من الملابس الداخلية، منشــفة، علبة معجون أســنان ما زال فيها كمية

تكفيه ليومين أو ثلاثة، فرشاة أسنان مستعملة، شفرة حلاقة يدوية تستعمل مرّة واحدة، كريم مزيل الروائح، وكريم شعر يهتم به لتصفيف شعره وطمس الشيب بطريقة مقبولة تلائم عمره، لقد تخطى عمر الشباب وبات على أبواب مرحلة النضج، وهاتف ذكي من ماركة (سامسونغ)، ودفتر يوميات صغير ومجموعة من أقلام الرصاص مع مبراة و ممحاة، لقد تخلى عن أقلام الحبر بعد أن ترك مهنة القضاء. ولولا ضرورة عمله في منظمة خيرية رئيسها صديق له بعد عام من اندلاع الثورة السورية ولجوئه إلى تركيا لتخلىّ عن الأقلام الجافة أيضًا، لكنه لا يحملها ولا يستعملها في كتاباته الخاصة أبدًا.

تقدم منه رجل في الأربعين يجرّ عدة حقائب وسأله لاهثًا متعرقًا:

- عفوًا، هل يمكننا وضع هذه الحقيبة مع حقائبك؟

انتظر الرجل ثواني ثم تابع:

- أحمل حقائب كثيرة، ورأيت إن كان مناسبًا..

- أعتذر

كان رده حازمًا وربما كان صادمًا للرجل الذي لم يتوقّع الجواب، وطفق يلوم نفسه على فراسته المخّيبة، ومن أين لذلك الرجل أن يعرف بأن مثل هذه الحالة كانت حُجّة في اتهامه والقضاء على

مســـتقبله كقاضٍ، وبدأ الرجل يبحث عن مســـافر آخر يحمل عنه بعض حقائبه التي تتجاوز الحدّ المسموح به للشخص الواحد.

قدّم المســـتشـــار الوثائق لقاطعة التذاكر التي رفعت عينيها عن الحاسوب وسألته إن كان معه رخصة سفر، فأشار إلى أنها ضمن الوثائق التي قدمها، التقطتها وتفحصـتها بسـرعة، ثم سـألته إن كان عنده حقائب للشـــحن فأجاب بالنفي، فقطعت له التذكرة متمنية له رحلة موفقة. "إنها (روبرت)" حدّث نفسه، ثم تقدم نحو مقعد شاغرٍ، أعاد ترتيب أوراقه، محدثًا نفســـه " اســـتراحة قليلة قبل الانتقال إلى سفر قصير آخر".

مسرحية واحدة لا تفارق ذهنه وهو على موعد لقاء مع (عايدة) في اســـطنبول. أوبرا عايدة هذه المســـرحية الغنائية التي تتحدث عن الصـــراع بين الواجب والحبّ، بين الحرّية والالتزام، تختزل الصـــراع البشـري للتملك أو التملص، تشـخّص الكفاح من أجل الحبّ، وثمن الحبّ باهظ جدًا، يدفعه المحبّ والمحبوب، من خلال قصـــة حبّ بين الأميرة الحبشـية الأسـيرة عايدة وراداميس قائد الجيش الفرعوني المنتصـر الذي أسـرها ثمّ حكم عليه بالموت دفنًا في غرفة مظلمة، بعد اكتشاف خيانته بتقديم معلومات عسكرية لوالد عايدة، وتفضـيله حبّ عائدة على الزواج من ابنة فرعون المتيمة به. ترفض عايدة المقارنة حين قال لها بأنّها عايدة مصـــر، وقالت له وهي تخترقه بعينيها رافضة الزواج به:

- خلف كل قصّـــة حبّ مؤلمة قصّـــة مؤلمة أخرى تولّدها القصّـــة الأولى، فالمحبُّ الذي يناضـــل من أجل محبوبه، يترك من أجله حبيبًا تعلّق به، و لطالما استمر هذا الصراع منذ أول نفسٍ إنسانية على وجه الأرض، وما نحن إلا بصمة لونٍ في ساحتها.

في الرسالة الأخيرة التي وصلته من عايدة ملاحظة تقول فيها " حين نلتقي في اسطنبول، سأثبت لك بأني لست عايدة ". تذكّر المستشار ذلك اليوم، يوم خلاصـــها من زوجها، كانت مبتهجة كعصـــفور فرّ من قفص، جاءت إلى مكتبه تشكره. كان يصغي لموسيقى النصر من قرص ليزري اشتراه من منظمي الحفل الموسيقي الذي رآها فيه أول مرة، كان القرص الليزري يحوي أجمل مقاطع أوبرا عايدة. دنت منه كفراشـــة. أغمض عينيه ومدّ شـــفتيه منتظرًا قبلةً، لكنها طبعت قبلة خفيفة على خده الأيمن وقالت: " كيف أصـــبحت قاضـــيًا لا أعرف، فضحك المستشار ضحكة خفيفة حين تذكّر ملاحظة أخرى في الرسالة الأخيرة التي وصلته من عايدة " سنحسم مسألة الشامة في اسطنبول".

الشـامة أو الخال، هي إحدى اللغات الصـامتة عند المسـتشـار، فللغات الصـــامتة عدد لا متناه فهناك؛ لغة الجســـد، ولغة نبرة الصـــوت، ولغة العيون وهناك المكتشـــفة المعروفة منها فلحفيف الشجر لغته، ولاجترار العشب لغته، وللأشكال والأحجام لغتها. وما التحليل إلا قراءة متقنة ومعرفة عميقة بتلك اللغة. والمستشار زكريا

لا يؤمن بأنّ للغات الصامتة قواعد ومنطقًا علميًا. هي حدسية، لذلك حين بدأ وظيفته في عام ٢٠٠٤ كقاضي صلح و قاضي شرعي ومعاون نيابة في ناحية اشتهرت بكثرة الجرائم، شعر في المرة الأولى بحاجته للدفتر الأحمر، الدفتر الصغير الذي دوّن فيه ملاحظات الأستاذ، ورأى أن عليه أن يفهم هذه اللغات الصامتة، وانتبه لملاحظة في الدفتر الأحمر يحذره فيها الأستاذ بشدة من الوقوع في الوهم قائلا له" لا تغتر بالمعلومات التي تقدمها لك الكتب، هي ملاحظات، وتجارب، والناس لا حصر لهم، فهم كالإبهام، لكل فرد بصمته، لا يوجد حالة تكرر أخرى مهما بلغت درجة التشابه، لذلك أحيانا تكون حركة معينة بعكس ما كتب عنه، فكلمة السفك مثلا تختلف، سفك الدماء غير سفك العرض. ذاك سفك وذاك سفك آخر. حين تقرأ بأنّ الشامة على الخدّ أو الحاجب الأيسر تدلّ على أنّ صاحبه غيور، لا تدل على أنّ كلّ الذين عندهم خال على الحاجب الأيسر غيورون. كلّ حالة لها ظرفها، وعليك أن تدرسها ككلّ لا كجزء." لذلك كان الدفتر الأحمر فيه تدوينات وملاحظات عن كل حالة شهدها. وحين أسرّت له عايدة بأن شامةً ترابيةً ورديةً تتوسط بطنها قُرب السّرة تمامًا. كان الخبرُ كسطل ماء حار صبّ على رأسه، لم يخبرها يومها بأنه قرأ ذات يوم في كتاب "تاريخ دمشق الكبير" لابن عساكر، الكتاب الذي استعاره من مكتبة الأستاذ ليتعرف على دمشق تاريخيًا، قصة نائلة بنت عمارة الكلبية زوج معاوية بن أبي سفيان الذي طلقها عندما سمع

من زوجته ميسون بنت بحدل الكلبية، بأنها جميلة ولكنّ الشامة التي كانت تحت سرتها علامة شؤم، تسببت بقتل زوجها. وتقول الحكاية بأن" نائلة تزوجت بعده بوالي أرمينيا حبيب بن سلمة الفهري، ثم بوالي حمص الصحابي النعمان بن بشير، فلما قُتل رُمي رأسه إلى ابنته فقالت زوجته: "إني أحقّ به"، فألقي الرأس في حِجرها كما توقعت ميسون." لم يكن زكريا وقتها مهتما بالتاريخ بقدر اهتمامه بهدى، وكان يعشقها ويعشق كلّ ما يمتّ إلى دمشق بصلة، ولهذا دفعه تصفح ذلك الكتاب والوقوف عند بعض القصص مثل تلك القصة التي لم يقتنع بها، وحين أخبر الأستاذ عن القصة، ضحك وقال: "سأقدم لك ملخصًا عن كتاب قديم يعود للعصر المملوكي، اطلع عليه وأعده لي." كان ذلك الملخص هو مقتطفات من كتاب (كشف الحال في وصف الخال) ينقل فيه مؤلفه صلاح الدين الصفدي عن أبقراط حول دلائل الشامة، دوّن قسمًا منه في دفتره الأحمر تحت عنوان دلالات الشامة. "من كان على أنفه في القصبة شامة كالعدسة، كان شبقاً ومحبوباً إلى النساء، ومن كان على وجنته اليمنى شامة كالترمسة، كان شحيحاً ناقص الحظ من أهله، ومن كان على وجنته اليسرى شامة، كان كادحًا شقياً. ومن كان على إحدى أذنيه من ورائها شامة، كان مبذّراً سيء التدبير، ومن كان على أحد جانبي عنقه شامة كان وفياً تقياً. ومن كان على حلقومه شامة كان موسيقاراً محباً للطرب. ومن كان على كتفه، أو من قِبَل وجهه شامة أو خيلان كان ذا حظ وسعة، ومن كان على

رأس كتفه، الأيمن شامة مشعرة كان عاملاً، أو والياً، أو ذا وجاهة. ومن كان بين كتفيه شامة أو خيلان كالزر محمر اللون كان سعيداً، أو ملكاً كبيراً".

أعلنت مذيعة المطار، بأن الطائرة ستتأخر خمسة عشرة دقيقة، وعلى المسافرين التوجه بعد نصف ساعة نحو البوابة الثانية. سرّه الخبر، فمتعة زمن الوصول إلى الهدف تكون دائمًا أجمل من لحظة بلوغ الهدف ذاته. ولكن لا ينطبق ذلك على جميع المسافرين ومن بينهم سيدة في الثلاثين عبرت عن ضجرها وقالت لمرافقتها العجوز" دائما هكذا، تأخير...تأخير". ابتسمت العجوز وقالت لابنتها" ابنتي، مطار عينتاب من المطارات المهمة في تركيا، يبعد عشرين كيلومترًا فقط عن مركز المدينة، و كان قد دخل الخدمة عام ١٩٧٦ قبل أن تأتي إلى الدنيا بعشر سنين."

مبنى الركاب في مطار عينتاب مؤلف من طابقين. يضم عددًا من المطاعم، والخدمات الصحية وغيرها ومكاتب شركات الخطوط الجوية التركية، ومثل كلّ المطارات يحتوي متجرًا للكتب والمجلات. توجه المستشار نحو إحدى الرفوف المليئة بالكتب التركية، وبدأ يتصفح المجلات ويتابع عناوين الصحف التي تصدرتها أخبار منوعة وقلقة، جعلت المستشار يتابعها بعينيه بسرعة، كانت أخبار صحف الثلاثاء الثاني عشر من تموز طازجة ومتنوعة، قرأها المستشار بصمت وانفعال وقلق، فخبر قصف النظام سوقًا شعبيًا

في حلب مات نتيجته عشـرة شـهداء وعشـرات من الجرحى وتذكر الصـحيفة بأنه انتقام وأن القصـف جاء بعد خسـارته مبنى البلدية الكبير وفندق الأمير الشـهير لمصـلحة المعارضـة. وكان هناك خبر عن تأكيد فوز وزيرة الداخلية البريطانية تيريزا ماي برئاسـة الوزراء بعد اسـتقالة ديفيد كاميرون وانسـحاب وزير الطاقة. ولكن الخبر الأبرز في الصـحف هو عن الحملات ضـد تنظيم (غولن)، حيث أفردت الصـحف لخبر القبض على ثلاثة أئمة تابعين للتنظيم قبل مغادرتهم مطار أتاتورك وبحوزتها مبالغ ضخمة وكذلك خبر القبض على خلية في القوات المسـلحة كانت تقدم المال للجنود والضـباط المتعاونين مع تنظيم غولن وأنّ هذا الإنجاز ثمرة عمل ثلاث سنوات على حملة تنظيف الدولة من جماعة غولن بعد انكشاف أوراقها.

اكتفى المستشار بما قرأ سريعًا حين سمع صوت المذيعة في إذاعة المطار تحثّ الركّاب المتجهين إلى مطار أتاتورك في اسـطنبول التوجه إلى صـالة المغادرة، فلملم أمتعته وتوجّه نحو الحاجز الأمني الثاني وكان عليه انتظار الشيخ الثمانيني الذي وضـع حقيبة صـغيرة في صـندوق الفحص، ثم اجتاز بوابة الفحص بخطوات دلت على صـلابته، ثم شـعر المستشـار بشـخص يرمقه بحنق، تذكّره، هو ذلك الرجل الذي طلب منه دس حقيبة له معه، تجاهله وتقدم نحو الحاجز بخفة بعد أن وضـع حقيبته على سـير جهاز الفحص، ثم

تقدم وهو يحمل بيده تذكرته وبطاقة الحماية التي تثبت هويته وتصريح الإذن بالسفر.

اجتاز المستشار بوابة الفاحص بأمان وقدم أوراقه للموظف المختص الذي أشار إليه التوجه إلى طاولة جانبية مخصصة لرجل أمن المطار. هناك كانت ثلة من السوريين ينتظرون مثله. وقف مثلهم ينتظر رجل الأمن الذي يطلب منهم الوقوف ليلتقط صورة ثم يعطيهم الأوراق ويتابع عمله كموظف استقبال المساجين. بينما الركاب الآخرون يمرون بسرعة، قسم منهم يلقي نظرة سريعة على الجمهور الصغير بانطباعات متفاوتة أقلها تشير إلى الشفقة.

المطارات ومحطات القطار والمرافئ عتبات المدن، منها تستطيع أن تدرك رقيّ أو تخلّف المدينة، ومنها تدرك غنى أو فقر المدينة، ومنها تدرك طبيعة الدولة والشعب والحكم في البلاد. لا شيء يقارن بما يحدث في بلادنا، وخاصة المطارات، فهي بوابة الخروج من السيطرة، لذلك لا تختلف المعاملة في مطار حلب أو دمشق بالنسبة له عن معاملة من يزور سجنًا أو مدرسةً أو مؤسسةً حكوميةً. الموظف لا يعرف الابتسامة، يفكر بجيبك فقط، إلا الذين لهم حظوة وحصانة وميزة وكان هو منهم، و لقد مرت عليه مناسبات كثيرة أمام الحواجز الأمنية، سواء في الطرق، أو المؤسسات أو المطارات أو الموانئ أو المرافئ. كان يقدم له التحية حين كان قاضيًا، والاحترام الشديد حين كان مستشارًا قانونيًا لشركة تجارية ضخمة،

حتى هنا في مطار عينتاب قبل اندلاع الثورة بعامين، كانت النظرة مختلفة، ولكنها الحرب التي قلبت الموازين، وهو غير نادم على قراره، ومقتنع تمامًا بحتمية الثورة، وإن كانت له نظرة مختلفة في الأسلوب، لهذا رفض كل العروض التي قدمت له من قبل الفصائل أن يكون قاضيًا وهو الذي يدرك صعوبة كونه قاضيًا نزيهًا ومستقلًا في بلد لا يعترف بالديمقراطية ولا المواطنة، كيف والبلاد اليوم في حالة حرب؟ رفض متعللًا بأنّ الحرب لها قوانينها ورجالها. في الواقع، موظفو المطار لا تفارق وجوههم الابتسامة، والتقدير والترحيب لا يختلف كثيرًا عن أي بلد يحترم المواطن، ولولا الإجراءات الأمنية الأخيرة، وهذه الوقفة الصعبة للتدقيق بهوية السوري لما شعر الإنسان بأنه يختلف عن أي فرد ومواطن له كرامته وعزته، ولكن هذه الوقفة، وهذا الانتظار يعتبر الأشدّ قسوة للمرء، فأنت هنا مثل وبر أسود في جلد خروف ناصع البياض.

حين دخل المعهد العالي للقضاء، كانت الدفعة الثانية التي تخرجت من المعهد لتعيين قضاة منها، وذلك بعد تخرجه من كلية الحقوق بدرجة جيد جدًا، ويطمح أن يكمل تعليمه في فرنسا ويصبح أستاذًا في القانون الدولي كالأستاذ، وكانت الأجواء في سوريا تشير إلى أن هناك ثمة أمل في انقشاع غيمة قاتمة جاثمة خنقت الكثيرين لعقود، و ظهر الرئيس الجديد الذي ورث الحكم في البلاد كأنّه يفكر بمنطق مختلف، فهو طبيب وليس عسكريا، ومتعلم في بلد

حضـــاري، و يوحي بأنّه يملك فكرًا اصـــلاحيًا، ســيعتمد على جيل جديد ينهض بالبلاد، ويمنع عنها أية غيمة تلوث أو فســـاد يخنق العباد. ولكن الأستاذ وحده قال له في سهرة من السهرات الأسبوعية التي يجريها في منزله بدمشق وتضم لفيفًا من أصدقائه المحدودين، بأنّه يشكّ في ذلك، وأنّه من المبكّر جدًا أن نأمل منه الخير، لم يكن المستشار في ذلك اليوم يهتم بما قاله الأستاذ، أستاذ القانون الدولي، سـليل عائلة دمشـقية عريقة، وابن شـخصـية كبيرة كان لها باع في الحكم، وكانت فرنسـا والمحاكم الدولية تسـتفيد منه أكثر مما يسـتفيد منه بلده الأمّ. ولكن اهتمام المســـتشـــار في ذلك الوقت بهدى ابنة الأستاذ، كان مشروعًا جميلًا للزواج، هكذا ظن، وهكذا ظنت أسرته التي فرحت بالخبر، لكن حادثة الوفاة الغامضـة المفاجئة التي أودت بحياة الأستاذ غيّرت كل شيء.

كان خبر قبول زكريا العاشــج في معهد القضـــاء حدثًا اســتثنائيًا لأسرة العاشج، فهي أسرة صغيرة العدد، مرّ عليها كثيرٌ من الويلات والكوارث. فجدّتـه الكبرى التي عّلمتـه اللغـة التركيـة كـانـت أكثر أعضـاء الأسرة فرحًا، قالت بأن زمن اللعنة على أسرة العاشج ولّى. وأن الجدّ إبراهيم العاشـج قال لها بأن سـيولد من صـلب ابنه ولد في زمن كبير سيكون له شأن كبير.

تنتمي أســرة العاشــج إلى قرية تل اللحم، وهي قرية صـــغيرة جدًا بالنســبة للقرى الكبرى المجاورة لها والتابعة لمحافظة حلب، تشــتهر

تلك القرى بزراعة الخضـــروات والزهور، وتشـــتهر المنطقة بطبقة المثقفين وكذلك بمهنة عمارة الحجر، وتمتاز قرية العاشـــج عنهم بأنها متخصـــصـــة أكثر بزراعة زهور نباتات الزينة، وهذا ســـبب تسـميتها بقرية العاشـج، مع أن اسـمها في الوثائق "تل اللحم"، تبدأ أسماء القرى المجاورة بكلمة (تل)، والتلال كما هو معروف صناعية وليست طبيعية، تستخدم لأغراض عسكرية، وتجد في المنطقة قرى مشـهورة مثل تلعرن وتل حاصـل وتل البلاط وتلعلم، وأشـهرهم قريتي تل حاصـــل وتلعرن. أما تل اللحم فتقع بينهما، مع أن أراضـــي تل اللحم سهلة ومنبسطة، أما سبب تسميتها بتل اللحم، فيعود ذلك إلى المشـــاجرة الكبرى التي وقعت قبل الحرب العالمية الأولى بقليل، فقد كانت تل حاصـل مركزًا لجمع الخراج زمن الدولة العثمانية، وبسـبب خلاف، حصـلت مشـاجرة كبيرة بين العوائل وشـبيحة ذلك العصـر الذين جلبتهم الدولة العثمانية ووزعت لهم أراضـي مجاورة، وقد سقط في تلك المشـــاجرة ضـــحايا كثيرة، وتم تكديس الجثث بين القريتين فســـميت بتل اللحم. ويقال بأن تلك الدماء جعلتها صـــالحة للزهور أكثر. إلى أن جاء العهد القومي الذي حول تلك الأراضـي إلى مزارع للقطن التي قضـــت على الآبار الجوفية وحولت المنطقة إلى شـــبه صـــحراء، إلى أن نهضـــت من جديد مع مشـــروع الري وإصـــلاح الأراضـــي فعادت لعهدها القديم، لذلك تتميز بالجوري والقرنفل الأحمر، وأصـبحا مع نهاية القرن العشـرين من أجمل المناطق التي تنتج زهور الزينة، كما أضحت المشاتل في هذه القرية الصغيرة حرم

العشاق، يتسامرون على ضوء القمر أو يتعانقون في نحر الظهيرة وقت قيلولة الكبار، ويتبادلون الزهور أيام الربيع. وفي حديث مطول مع الأستاذ والد (هدى) الذي زارهم ذات يوم، لصداقة موروثة، مع زعيم المنطقة الذي كان نائبًا في البرلمان بعد الاستقلال وصديقا للشخصية الكبيرة والد الأستاذ، وهو والد الطبيب المشهور بلقب الحكيم الذي كان حكيمًا ومصلحًا اجتماعيًا أكثر منه كونه طبيبًا، فالمشاجرة والتعدي في القرى من صميم بنيتها، فلا تكاد تخلو قرية من صراع كبيرًا كان أم صغيرًا، وأكثر وقت يتأجج فيه الصراع هو وقت الحصاد، كما يكثر الزواج بعد الحصاد أيضًا، إنها سنة من سنن نظام القرى، وكانت هدى معه، وهو يومها اللقاء الأول بها. كانا صغيرين، ويذكر في أنه حين حضر وليمة الغداء التي أقامها والده يحيى العاشج على شرف الأستاذ المختص بالقانون الدولي أنه قال للأستاذ "إنّ الجدّ الكبير لأسرة العاشج كان جنديًا شجاعًا. و خدم مدة في إسطنبول وعين مرافقًا لحماية دبلوماسي انجليزي، كانت زوجته تعشق الزهور، وتكتب رسائل جميلة، وكان هو مرشدها، ويقال بأنها منحته ليلة جميلة قبل أن تترك إسطنبول، وأنه عاد إلى أورفا مسقط رأسه بعد ذلك، لكنّه ظلّ يحتفظ بالزهور، ومنذ ذلك اليوم سمي بعاشق الزهور، وهاجر مع بني قومه في بدايات القرن الثامن عشر إلى هذه المنطقة. وأن المنطقة كلها كانت تحمل لقب العشيرة، إلا أنه بعد سيطرة حزب البعث، ونقل السجل المدني إلى السفيرة، وحصر النسبة بالجدّ، حدث اختلاف في النسب،

وصـــديقنا أبو زكريا هو من ســـلالة ذلك العاشـــق الكبير، والذي تم تحريفه إلى العاشـج حسـب لهجة المنطقة". يتذكر المسـتشـار زكريا كم كانت هدى مختلفة عن بنات القرية، نظيفة ومرتبة ويفوح منها عطر نافذ لا يشـبه أريج زهور القرية. ويتذكر ما قاله الأسـتاذ ذلك اليوم:" كنـت اتـذكر في مكتبـة جـدّي التي احترقـت، كُتيبًـا بـاللغـة التركية اســمه (رســائل الشــرق) على ما أظن، وكان جدكم النايب الذي يتقن التركية تصــفحه ثم قال ضــاحكًا يبدو أنها الســيدة التي عشقها أحد أجدادنا".

في ذلك اليوم من عام ١٩٩٠ قدّم زكريا أول رســـالة حبّ لهدى، كانت الرسـالة زهرة بنفسـج. ضـحك الأسـتاذ يومها وقال لوالد زكريا يبدو أنه سـيكون لهذا الغلام شـأن جده الكبير. حينها تدخّل الحكيم وقال عوضًا عن والد زكريا:

- والده يرغب أن يكون قاضيًا.

ضحك يومها الأستاذ وقال:

- إن درس الحقوق وكنت على قيد الحياة سأكون خير عون له.

تعدّ عائلة المستشار عائلة جيدة المستوى، لكنّ لعنة العشق تصيب العائلة كلّها، اشـــتهر جدّه بشـــغفه بالحجيات، وكان الجدّ إبراهيم العاشـج شابًا ومدللًا، فهو وحيد والديه، أرسلاه إلى مصـر، ولكنه لم يطق ذلك، وكان يعرف بأنه أعظم من يكتب الرسائل، وكان قد كتب

رسـائل كثيرة للعشـاق والمغتربين والمسـجونين. صـدف أن خيّمت بالقرب من قريتهم جماعة من النّوَر مهمتها تسـلية الرجال يقال لهنّ الحجيّات، فتعلق قلبه بحجية يقال لها عضّـة، لأنها كانت مشـهورة بالعضّ، وكلّ من تعضّـــه يتعلق بها. كان الجميع يهابها، ولكنّه تحدى شـــباب القرية، ودخل خيمتها، يقال بأنهّا عضّـــته ثلاث عضّـات، من ذلك اليوم تعلق قلبّه بها، واشـتهرت تلك العضـة باسم عضة الضبعة، لأنها ما أن تعضّ فريستها، حتى تسلب عقله وتلتهم ماله وجســده. رحلت تلك الحجية ولم يلحق بها إبراهيم، ولكنه تعلق بعالم الحجيات وشـاع صـيته، فرفضـت بنات المنطقة الزواج به، فحزن والده كثيرا ثم أخذ إبراهيم وســـافرا إلى ولاية أورفا في تركيا حيث هناك أبناء العمومة، وعاد بعد عام دون والده الذي قال بأنه دفنه هناك. ولكن كان معه زوجة هي جدّة المستشـار خاتون خانم. وقد شـــاع في المدة الأولى بأنّه خطفها خطيفة، والدليل على ذلك عدم مغادرته ســـوريا بعد زواجها وعدم زيارة أهلها له، ثم تطورت الإشـاعة إلى خبر بأنها غجرية من غجر تركيا، وكاد الأمر يتطور إلى مشـــاجرة كبيرة لولا زعيم المنطقة الذي قطع الألســـنة وقال في مجلس كبير " هي ابنة عم لنا، أصـيلة بنت أصـيل". وشـرح سـبب ذلك بأنّه لجمالها كادت تقع مشكلة كبيرة بين أقاربها في تركيا، لذلك كان الحل في زواجها من ابن عم لها من ســـوريا، وكان هو إبراهيم العاشج أيّ جدّ زكريا. وحاول المستشار زكريا مرة البحث في أصل الحكاية يوم بدأت العلاقات بين الدولتين تتحسن وتتطور في بدايات

القرن الحادي والعشـــرين، وبدأ تبادل الزيارات بين الأقارب في الدولتين، لكن الذي كان يمنعه هو نصيحة الحكيم الذي ورث زعامة القرية عن والده بأن ذلك بابٌ كبير ليس من الحكمة فتحه. كم ضحكت عايدة حين سمعت من زكريا ذات ليلة قصة جدّه، وقالت له بأن العشق الصعب ورثة في سلالتهم.

كان إبراهيم العاشج جدّ المستشار من أشهر الذين يتقنون فنّ بناء الحجر، تخرج على يديه عشرات الصنّاع الذين باتوا اليوم من كبار أصـــحاب المهن، ليس لتميز حلب بحجرها الكلســـي المعروف بـــ"الحلبي" و بألوانه الأبيض والأصفر والزهري، الذي تدين مباني حلب له بالجمال و التميز، بل هي مهنة ورثها عن والده أيضًـــا، ويقال بأنها متوارثة عن أجدادهم مذ كانوا في تركيا وكانوا مجاورين مهرة ســـريان وأرمن حيث عملوا معهم مدة من الزمن، وكان إبراهيم العاشـــج يتميز عن بقية المعماريين بأنه فنان فطري، يعرف أنواع الحجارة ويميزها، في نظرة واحدة وبعد لمســـة على الحجر، يعرف قساوته ومدى مقاومته للرطوبة، ومكث عنده فنان فرنسي ستة أشهر ليتعلم طريقة عمله بالإزميل والدبّورة، موهبة فطرية في القصّ وتنســـيق الحجر المعدّ للبناء، كان حين يجثو لكي يهندس الحجرة يتلصص عليه كبار وصغار المصلحة ليعرفوا كيف تتشكل بين يديه من دون تشقق أو تتصدع أو انشطار. وسيعود ذلك الفنان في آخر عمره بعد عام من غياب إبراهيم العاشج ليسأل عنه فيقول بأنه

هاجر ولا أثر له، ولكنه كان مصـــرًا على الاجتماع به، فبدأ يقتفي أثره لمدة قصـــيرة ثم علموا بمقتله من قبل دليله، الذي نشـــرت الصـحف خبره بأن الدليل طمع بمال العجوز الفرنسـي. وكان يمكن أن يكون لإبراهيم العاشـج شـأن كبير جدًا لولا ولعه بالحجيات، إلى أن مر بقريتهم رجل دين صـــوفي من أصـــل داغســـتاني، اســـتقبله العاشـــج في داره، وحين قدم له الطعام قال له الصـــوفي: "نحن لم نأت لنأكل طعامك بل لتأكل أنت طعامنا" وقتها قال "وداعًا للهو"، وبات مريدًا عند الشيخ الذي مكث تسعة أشهر في المنطقة ثم رحل، تغيرت أحوال الجد بعد ذلك، وحين بدأ القطن يكتسـح الأراضـي بدل الزهور، قرر الرحيل وقال لأصحابه في جلسة الوداع":

- القطن شـره للماء سـيمتصّ كلّ الآبار الجوفية ويجعل من أرضـكم صحراء وأنا لا أطيق الصحراء.

وبعد أيام رحل ولم يعد. كان ذلك في عهد الوحدة بين ســـورية ومصر.

أخبر إبراهيم العاشـــج زوجته خاتون خانم قبل أن يرحل بأنه اختار طريقًا آخر، لقد جال بلادًا كثيرة، وعليه أن يرحل إلى كل شبر عاث فيه فسادًا ليكفّر عن ذنبه بالدعوة إلى الحق، وأن الشيخ الداغستاني الذي أخذه بيده، دّله على طريق العشق الحقيقي فلا عشق إلا عشق الله، وما العشـــق الدنيوي إلا تدريب للعشـــق الأكبر. لم يودّع أحدًا، خرج بصمت، ولكنه ترك رسالة لولده يحيى كتب فيها" ولدي يحيى،

علمتك مهنة عظيمة، وتركت لك قطعة أرض كبيرة كافية، سأهاجر خوفًا عليك، لأن القلب لا يسع عشقين، وأوصيك بأمك وبالأرض، كلاهما بركة عظيمة، لا تزرعها قطنًا، ازرع أي شـــيء إلا القطن، ولا يغرنك المال الكاذب، ستوّدع هذه الأرض لزراعة الزهور، حافظ عليها، وعلى تربتها.

وكنت أسأل دائمًا: لم ذريتنا قليلة؟ فأنا وحيد، وجدّك وحيد وجدّ جدّك وحيد، لا بد من ســـبب، لأن الحبيب إذا أحبّ لا يريد أن يحبّ مع حبيبه أحدًا، ولذلك إن رزقت بولد ســمّه زكريا، وســيكون له شـــأن عظيم، لقد حلمت أن قاضـيًا سـيكون من ذريتنا. وهكذا ورث يحيى والد زكريا العاشج مهنة البناء أيضًـا، فهو معمار من الطراز الأول. لذلك كان المشرف على بناء سور ومزرعة الأستاذ في ريف دمشق، هكذا كان يعرف في المنطقة، وفي داخل الأسرة، ربما هناك كثيرون لا يعرفون اســـمه، ولكن حين يقال الأســـتاذ، فهو أســـتاذ القانون والصديق الحكيم، وابن الشخصية الكبيرة صديق الزعيم والد الحكيم. وفي مساء السادس عشر من حزيران عام ١٩٧٩، وفي تمام الساعة السابعة أطلق يحيى العاشج سبع طلقات من مسدسه احتفالًا بولادة ابنه زكريا بعد ثلاث بنات. لم يكن يدرك أنّه في ذات التوقيت كان على مقربة كيلومترات قليلة من بداية عملية قام بها مجموعة رافضة للنظام في ذلك الزمان، ســـببت كارثة فيما بعد، غيّرت من حياة سـوريا للآن، حيث قام نقيب في مدرسـة المدفعية بتنفيذ عملية أدت

إلى مقتل أكثر من ستين طالبًا ضابطًا ينتمون لطائفة حاكم البلاد. وأدى ذلك إلى دخول البلاد في صراع دام استمر سنوات. عشر دقائق فقط من عمر الكون، كانت كفيلة بتحويل سوريا إلى حمام دم استمر عدة عقود. لقد قُتل ذلك الضابط بعد سنة، لكن ما سببه لأسرته وعائلته وأقاربه من سجن وقتل وتعذيب فاق كل وصف. تحولت بعد ذلك سوريا إلى دولة تخيم عليها غيمة عملاقة منعت عنها رؤية النجوم وقت السحر، وحجبت القمر ومنعت الطيور الاستحمام تحت ضوئه. لقد جففت تلك الغيمة الداكنة الينابيع فلم يعد هناك شيءٌ اسمه سوريا بعد ذلك. لكن والد زكريا لم يكن يهتم بذلك كثيرًا، فالمشاكل في القرى لا تنتهي، فقد بدأت مجموعة من الرعاة تعتدي على أرضه، ولولا دعم الزعيم لكان فقد كل ما يملك. حتى تكون محميًا في قرية يجب أن تكون صاحب قوة، أو تكون تحت حماية قويّ أمين. لذلك كان زكريا الأمل الذي عاش والده من أجله، سيكون قاضيًا له هيبته وحكمته وقوته. ومع ولادة زكريا، اغتيل والد الحكيم، بسبب مشاجرة عائلية قتل نتيجتها ثلاثون رجلاً خلال فترة الأحداث، إنه قانون العشيرة والقبيلة، الذي يفوق كل القوانين وسلطته أعلى من كل السلطات، وكان على الأب يحيى العاشج أن يترك القرية وينزح إلى حلب بعد وفاة والدته سكن بداية في شارع الأكراد في حي باب الحديد التاريخي، ثم انتقل إلى شمال غرب حلب حيث حيّ الأشرفية، وهو حي شعبي أغلبية ساكنيه من الأكراد، وبعد أن قضى مدة من عمره في بيروت جمع مبلغًا من

المال، اســـتطاع أن يبني بيتًا شـــبيهًا ببيتهم في القرية. وحين كبر زكريا، الذي كان آخر العنقود، لم تحمل أمه بعده، دخل قســـم الحقوق، وكان الحلم الكبير يقترب شيئًا فشيئًا، وحين تخرّج، سافر مع والده إلى دمشـــق وقابل الأســـتاذ الذي قال له، بأن حظّه من السماء فالحاكم الوريث للبلاد قد أعلن افتتاح معهد لتعيين القضاة، كان قبل ذلك يتم تعيين القضـــاة عبر مســـابقات تقام كلمّا دعت الحاجة، ومن ثم يتم تدريب الناجح في المسابقة بخضوعه لدورات عملية في المحاكم المختلفة مدتها ستة أشهر، ثم يتم فرزه للناحية ليبدأ عمله. كان الخبر سارًا لأن الأستاذ أخبره بأنه منذ زمن طويل لم تعد له المقدرة على التأثير في مراكز القرار. وأنّ ذلك ســـيعتمد على قدرة زكريا، وهو متفوق، ولا يخاف عليه، ولكن ســـيقوم بعناية خاصة به وهكذا كان. حين نجح زكريا بالمسابقة التحريرية والشفهية للقبول بالمعهد القضـــائي كانت فرحة القرية كلّها لا تقل عن فرحة الأب، وقد وصلها النبأ وبات زكريا قاضـيًا منذ تلك اللحظة، وبات الأبُ يحيى العاشـج يعرف بأبي القاضـي لا بابن العاشـج، وكانت فرحة الأستاذ به كبيرة أيضًا، لأنّه سيفي بوعده لصديقه الحكيم الذي سيغتال أيضًا بسبب مشكلة من المشكلات الاجتماعية التي لا تنتهي. وحين ذهب إلى منزل الأســـتاذ ليبشـــره رأى هدى التي لم تتذكره في بداية الأمر، كانت مستديرة الوجه، قصيرة مائلة للسمنة بعكس والدها الطويل النحيف مستطيل الوجه، لكنها بيضاء، ناهدة، تملك عينين سوداوين كعيني أمها ذات الأصول التركية، يفوح منها

عطرٌ منعشٌ هو ذات العطر الذي شـمّه المسـتشـار في طفولته، و كانت تتقن ســـت لغات، فرحت كثيرًا حين تذكرته، وقالت له بأنها تحتفظ برسـالته، احمر وجهه ذلك المسـاء الذي لم يتكرر، فقد كانت وحيـدة أهلهـا، جرّتـه من يـده وأخـذتـه إلى غرفتهـا، هنـاك أخرجـت صندوقًا خشبيًا مصنوعًا من خشب شجرة زهرة الصندل، كان يعرف ذلك لأن والدته اهدتها لزوجة الأسـتاذ إبان زيارتهم التاريخية للقرية. وقالت لـه: " هذه هدية من والدتي". فتحت الصـــندوق وأخرجت الرسالة المدفونة مع أشياء أخرى، كانت زهرة البنفسج داخل صندوق بلاستيكي صغير محكم كأنها حورية بحر محنطة، نظرت في عينيه وقالت له:

- أرأيت؟! لا زلتُ وفيةً محافظةً على هديتك.

كان المستشار ثملًا من شذى عطرها وقال لها:

- عطرك رائع جدًا

ابتسمت وقالت له:

- إنه عطري وباسمي، والدي يصنعه خصوصًا ولا يباع أبدا.

كان المسـتشـار كأهالي المنطقة على علمٍ بأن للأسـتاذ مصـنعًا للعطور في فرنسـا ورثه عن والده، وكانت الزهور والنباتات العطرية كالكمون و التي تنبت في قريته ومنطقته مخصـصـــة له. وهمّ أن

يبوح لها بأنه أحبها منذ زيارتها للقرية لكنها أغلقت الصـــندوق حين سمعت صوت والدها يستعجلهما، فخرجا لتناول العشاء، حيث انضم للعشـاء شـاب وسـيم متجهم الوجه، أدرك فيما بعد بأنه سـيكون زوج المستقبل ويعمل في السلك الدبلوماسي. في وجبة العشاء التي تقام على طراز فرنسـي، التي كانت الوجبة الرئيسـة فيه كبدة الوز ولحم الكنار أي الوز، وسلطة الموسم، وتوسطت الأطباق طاقة من زهر البنفســـج كل زهرة تحوي خمس أوراق مختلفة، تنشـــر رائحة ذكية يعرفها المســـتشـــار جيدًا، وخلال الطعام قالت هدى وهي تدلّ خطيبها:

- زكريا أعجبه عطري.

تبسّم الضيف بتصنع وخزته هدى بدلال وأصغوا للأستاذ الذي قال:

- وأيّ عطرٍ له زهرة أســاســية فقط، ثم مزيج من زهور أخرى ويدخل الكمون أيضًـا كزيت عطري، وكذلك جذور زهور مختلفة وفق نسـب معينة يشتغل عليها مهندسون زراعيون وكيميائيون.

ثم توقف عن الطعام وأشـار إلى زهرة البنفسـج التي تتوسـط المائدة وقال:

- الخلطة هي أهم شـيء في العطر، وأصـل عطر هدى زهرة البنفسـج من قريتكم، الحمـد لله عـدتم من جـديـد لزراعتـه، فكـل زهرة لهـا

شــروطها، ويحتاج البنفســج للظل أكثر من الشــمس، ولكن عندكم حالة مميزة. الظل رباني. رحم الله جدّك.

ثم توقف هنيهةٌ وقد تبدل لونه، قلق عليه الثلاثة، ولكن شــرب قليلا من الماء وقال لهم:

- أتموا طعامكم عليّ ترتيب سهرة الأسبوع.

طَوَالَ مدّة المعهد، لم يقطع زكريا أمله بأن تكون هدى زوجًا له، ولكن خبرتـه لم تكن كـافيـة، ولم يكن لـه تجـارب، فهو وحيد أهلـه، ومواظ بعناية أخواته البنات اللواتي تزوجن وانشـغلن بأسـرهن. كانت هي مثل الانجليزية التي عشـقها جدّه الكبير ذات يوم. وكان يزورهم كلّ أسبوع خلال مدّة التدريب في المعهد ولكن لم تتكرر تلك الخلوة، فقد كانت منشـغلة دائمًا، وكان الأسـتاذ يقدم له معلومات مسـكوبة عن المحاكم وطبيعتها، ويطلعه على أســـرار المهنة وينقلها إليه بطريقة مختلفة عما كان في المعهد. هنا تعلم من الأســتاذ كيف أن الدســتور هو عقد اجتماعي ينظم بين الشــعب ومن يتولى رعايته، وكيف أســـهم والده في كتابة أهم دســـتور للبلاد، وكيف حوّل والد الحاكم الحالي البلد إلى مزرعة مختصـــة به، وفرّغ كلّ شـــيء من معناه، وأن أكبر ضـابط في الشـرطة هو خادم لأصـغر قاضٍ، وأن حكم الطوارئ ما هو إلا لمنع محاسبة رجال الأمن من قبل السلطة الشـــرعية. ولا يرى في الوريث الذي بدأ في هذه المرحلة خطوات جميلة وعلامات تبشـر بالخير، بل يراه مثل مطر الربيع. كان زكريا

مشـغولًا بهدى، لذلك كانت دروس الأسـتاذ الخصـوصـية تخزن في ذاكرته كمستودع، كم يشعر الآن بحاجة إلى نفضها من جديد، ومن حســـن حظه، أنه كان يدون الكثير مما قاله الأســـتاذ بتوجيه منه شـخصـيًا في دفتر خاص لازال يحتفظ به. غابت هدى نهاية العام الثاني من دراســـته في المعهد. لم يعد يســـمع أخبارها. بعد تلك الحادثة المشـؤومة. تلك الحادثة التي وقعت كما قالوا بسـبب سـيارة مجهولة صـدمت الأسـتاذ، ولكنّ الخبر كان كالصـاعقة، كان زكريا يسـتعد لتقديم مشـروعه حول نشـر برنامج توعية قانونية في شـباب الريف لتخليصـهم من العادات المتخلفة، وكان الأسـتاذ سـعيدًا جدًا بمشروعه، وبادر إلى القول: سأعرّفك إلى جمعيات ستساعدك في ذلك، فالبلد لاتزال فيـه مجموعـة تعمـل من أجلـه، لكن خبر وفـاة الأسـتاذ والذي سـمعه من مدرس في المعهد أوقف كلّ شـيء. كانت هدى صـامتة حزينة، وكان لا يعرف ماذا يفعل، حضـر عدد لابأس به من أقاربه، كان والده على رأسهم، شاركوا الدفن والعزاء، ثم عادوا وعاد هو إلى المعهد يكمل ما تبقى ويســـدل الســـتارة على حلم لم يتحقق.

تزامن صـوت مذيعة المطار التي أعلنت بدأ اسـتقبال الركاب على الطائرة المسافرة إلى مطار أتاتورك مع تقدّم طاقم الطائرة نحو البوابة الثانية، وكانت السـيدة الثلاثينية أول من نهضـت، واتجهت بسـرعة نحو البوابة، في حين نهض المســـتشـــار برفق، وتقدم وهو يقول

لنفسه" صوت المذيعة تحسن، يبدو أن فطورها كان عسلا، نسأل الله أن تكون رحلتنا حلوة كالعسل.

المحطة الثانية مدرج مطار عينتاب

يمكن اعتبار مدرج المطار النموذج المثالي لتطبيق الشـــعارات التي ناضـــل الإنســـان من أجلها، الحرية والعدالة والمســـاواة والكرامة، فالركاب متساوون، لهم هدف واحد وهو الصعود للطائرة، ويسلكون الطريق نفسه، وكلّ يعرف مقعده، بعضهم يسرع، ولكن في النهاية لن تقلع الطائرة دون أحد، كان أغلب المسافرين يمشون بخطوات مرحة، يشعرون بطاقة إيجابية لا توصف، كالمحبين الذاهبين للقاء المحبوب. المدرج ليس فقط رقعة أرضية مستطيلة الشكل، كشارع طويل أو كطريق دولي قصير فحسب، بل هو مجهز لهبوط وارتفاع الطائرات، و مؤلّف من أربعة أقسام، من مدرج وممر رئيس ومساحة أمان وممرات ربط تســـتخدم لخروج ودخول الطائرات مع الســـماح لطائرات أخرى بالهبوط والطيران، واهتمام دقيق بإضاءة تتضح ليلًا، اللون الأخضـــر يدل على بداية المدرج، والأحمر على نهايته، والأصـــفر قبل بدايته. بل يعتبر المدرج مدخلًا حقيقيًا للبلد. لذلك تهتم الدول الكبرى بمدرجاتها، وتحرص أن تكون ممتعة ومغرية للقادمين والمغادرين.

كان المستشار قلقًا ومتوجسًا، مع أنه من المتوقّع أن يكون أكثرهم بهجة، فهو على موعد بعد ســـاعات بلقاء انتظره طويلًا، فهو بعد سفر عايدة قبل عشرة أعوام، انشغل بعمله الجديد، وتنازل عن البيت الكبير في حلب لشقيقتيه الوسطى والصغرى، ومنح البيت الكبير

لأختـه الكبرى في القريـة، واتفقوا على الأرض المتبقيـة، اكتفى هو بقطعة الأرض التي بقيت له، رغم سخط القرية والمنطقة بأنه اختراق للعرف، ففي القرى تأخذ البنات ميراثها بالتراضـــي ولا تُمنحه كاملًا كالذكور، لكنّه كسر العرف. كان كثير السفر والترحال. وقبل الثورة بثلاثة أعوام، بدأ يفكر بالأرض، وكيف يســـتفيد من زراعة الزهور، واستطاع بمساعدة زوج شقيقته الكبرى و باستشارة رفاقه المهندسين الزراعيين أن يجعل تلك الدونمات العشـــر التي بقيت له، ذات قيمة عالية، اســـتطاع أن يجعل منها مزرعة نموذجية لزراعة الزهور، وخاصـــة زهرة البنفســج، ومع بداية الثورة اســتقر في القرية، رافضًـــا تولي أي منصـــب، واكتفى بتقديم النصـــح والمشـورة، وبدأت رســائل عايدة تصله بشكل أكثر، تحثه على الخروج، لكنه كان رافضًا ذلك، إلا أن الثاني والعشـرين من تموز ٢٠١٣ كانت اللحظة المصـيرية، فقد هجمت على المنطقة فصـــائل متنوعة، تريد الســيطرة على قرى المنطقة التي تكتســـب أهمية اســـتراتيجية، كونها قريبة من مطاري النيرب و كويرس العســـكري، وقريبـة من مركز البحوث العلميـة ومعامل الدفاع. وخرج مع من خرج صباحًا برفقة عناصر من كتيبة ثائرة تم تصـــفيتها لرفضـــها الانخراط في الهجوم. كم هي قاســـية الحرب، كان أبناء المنطقة بين نارين، نار النظام الذي لا يرحم من يقف ضـــده، وبين فصـــائل لا ترحم من لا يســـير وفق خطّتها، لا يمكن أن ينســـى ذلك اليوم وهو يرى ســـكان القرى المدنيين وهم

يرحلون على عرباتهم وسياراتهم ودرّاجاتهم النارية، يحملون ما يمكن حمله، لتبدأ سلسلة متتالية من النزوح والهجرة واللجوء.

داعبت نسمات لطيفة باردة خدّ المستشار، ذكرّته برائحة الأرض في قريته، فالتضاريس حول مطار عينتاب تشبه تضاريس منطقته، كأنّ لمسات النسمات اللطيفة كؤوس هواء سحبت القلق وخففت التوجس، دفعته للسير نحو الطائرة بخطوات أسرع. بينما حثت السيدة الثلاثينية والدتها على السير من دون أن تبطئ سرعتها، فقالت لها الأم" ما بك تستعجلين لن تقلع دوننا" توقفت السيدة الثلاثينية ثم التفتت نحو والدتها وقالت" وإذا لم يبق مكان لحقائبنا" ثم تابعت سيرها تجر حقيبتين متوسطتي الحجم. قالت الأم بصوت خافت سمعه المستشار الذي كان خلفها "هذا همك فقط الحقيبة."

خطت السيدة العجوز خطوتين متسارعتين ما سبب خللا في توازنها وكادت تسقط لولا ردة فعل المستشار الذي ساندها وحماها من السقوط، شكرته السيدة العجوز ثم طلبت منه فتح كفّه الأيسر، دققت فيه، وقالت له:

- في حياتك يا ولدي ثلاث سيدات، خط القلب يشير إلى انقطاع علاقتك مع واحدة، لكن بنصرك يوازي سبابتك، ستواجه صراعًا حادًا بين قلبك وعقلك، لكنهما أقصرا من الأصبع الوسطى، وهذا شيء جيد، تتحلى بأخلاق جيدة، وتفهم المسؤولية، وستكون واقعيًا مع أنك ستعيش طول عمرك في الخيال."

ثم طلبت منه أن تشمّه، رضخ المستشار للطلب. شمته السيدة ثم همست في أذنه:

- خط قدرك ليس سيئًا ولكنه صعب كان الله بعونك وسيكون بعونك إن شاء الله، لا تقلق أمورك ميسرة رغم الصعوبات والعذاب، لكن ستكون بأمان".

المحطة الثالثة الطائرة

استقبلته المضيفة بوجه مبتسم فأنسته تلك الوقفة الاضطرارية مع موظف أمن المطار للتأكد من أوراقه، كأن ابتسامتها المرسومة وكلامها المتكرر " أهلًا وسهلًا بكم" كدمية إلكترونية صنعت خصوصًا لذلك، بالإضافة للنظرة. فلُغة العيون لا يمكن أن تُترجم. قرأ في عينيها أنّها تفهّمت مساعدته للسيدة العجوز، وأومت برأسها تدعوه للطائرة حين أظهر بطاقة السفر التي اقتطع منها أحد طاقم الطائرة الجزء الذي يخص شركة الطيران ثم أسرعت تساعد السيدة العجوز لتخطي المصعد التلسكوبي واجتياز عتبة الطائرة. واتجه المستشار يبحث عن مقعده.

كانت الطائرة من نوع إيرباص إيه ٣٣٠، تسع أكثر من ثلاثمئة مسافر، الممر يقسم صفوف المقاعد إلى شطرين، كلّ شطر يحوي ثلاثة مقاعد، وتذكر حينها قول عائدة " كل طائرة هي بحر من بحور الشعر"، وكل صف هو بيت شعر، وكل شخص هو تفعيلة، وحين يجلس شخص في مكان غير مكانه، يحدث الخلل، فالحالم يفضل النافذة في الطائرة، والعملي يفضل المقعد الذي بقرب الممر، أما الوسط فهو المفضل لدى المتردد المذبذب. كذلك الحياة عند عايدة، هي قصيدة شعر تتجلى في لوحات. وترى عايدة أجمل الطائرات حين تضم العشاق لأنها تكون من البحر الوافر. كانت حين تودع شخصًا تقدره تقول له: "اتمنى لك رحلة وافرة".

بدأت إذاعة الطائرة تشـرح تعليمات النجاة، بينما وقفت مضـيفتان، في بداية ومنتصف الممر تعبّران بجسديهما ما تقوله مذيعة الطائرة، راقب المسـتشـار المضـيفة القريبة منه، وهي تمثل حركات الانقاذ، وتدل الركاب على المنافذ بالتزامن مع مذيعة إذاعة الطائرة، مثل روبرت آلي.

تفحص المسـتشـار راحة يده وبدأ يفكر ما أخبرته السـيدة العجوز قبل صـعوده الطائرة، وسأل نفسـه: هل من مفاجأت أخرى يا تموز؟ ثم أغمض عينيه، و أخذ يســتمتع بالهواء المكيف الذي يهب على المسـافرين من فتحات التكيف متسـائلًا: " لماذا اختارت عايدة يومًا تموزيّا حارّا للقاء؟"

يحدث للمرء أحياناً أن يشـاهد إنسـاناً عدة مرات، ثم يكتشـف بعد هذه المرات أنه يكتشـفه لأول مرة في السـلب أو الإيجاب. اللمسـة الأولى مع عايدة كانت المصـافحة، مع أن المصـافحة يمكن أن تتم بين شــخصــين وقد يكون هناك قيود لها، أو بروتوكول، فإنها كما تقول عايدة إنّ لحظة المصــافحة تعتبر أهم لحظة، لا قيمة لها إن كـانت على التوازي، كقطـارين متحـاذيين، أو قطـارين تصــادمـا. المصافحة التصادمية أقوى، أما الجانبية فهي عابرة.

في السـادس من شـباط ٢٠٠٦، كان يوم اللقاء الثالث مع عايدة في بيت صـديقتهما منى بمناسبة عيد ميلادها، كان للمصـافحة طعمٌ آخر، كانت المصـافحة لمسـة حقيقية، لم يفكر المسـتشـار يومًا بيد

امرأة يصـــافحها مثل هذا التفكير. كان يتفقد ســـخونة أو برودة المصافحة في كلّ مصافحة، وكانت بالنسبة له جسرًا لاتفاق صداقة أو فراق. كانت أول مصافحة بينهما، انقلبت اليد إلى وسيلة لاتصال الأرواح، سمحت المصـافحة لهما بالسباحة في فضـاءات بعضـهما بعضًا. في تلك اللحظة لم يبقَ الأنا، انصهر مع الآخر. فالمصافحة لغة صامتة عظيمة.

في ذلك المســاء برد كلّ جســمه إلا راحة كفه، شــعر يومها بأن مصـافحته لهدى ابنة الأستاذ ما هي إلا (بروفة) للمصـافحة الكبرى مع عايدة، وحين لجأ ذلك المساء الى المدفئة، سخن كل جسمه إلا راحة كفه فقد بردت. كأن الجسم حل في اليد مثل كيس ثلج. سألته عايدة بعد أشهر من ذلك اللقاء الذي جمعهما بصديقة مشتركة:

- ما رأيك بالمصافحة؟

قال لها:

- وسيلة تواصل الإنسان بالإنسان ولكنها ليست الوحيدة.

ابتسمت وسألت:

- ما الطرق الأخرى؟

قال وهو يبحر في فضاء عينيها:

- الأنف والعين والكتف والرأس والخد.

تفصحت يدها اليمنى وقالت:

- المصـــــافحة تعني التنازل، تنازل الأعلى للأدنى، تنازل الأقوى للأضـعف، التسـاوي، ومتى حصـل التسـاوي حدث التصـادم مثلما حدث مساء عيد ميلاد منى.

عرف بعد ذلك بأن لها لوحة سـيريالية سـمتها المصـافحات تظهر فيها الأيادي كالقطارات بعضـها يتصـادم وبعضـها يتوازى وبعضـها يتقاطع.

لم يتصافحا بعد ذلك المساء مرة أخرى، وعرف فيما بعد أنها تكره المصـافحات، وكانت تصـف المصـافحات التبادلية، مصـافحات مصلحية، تُسخن البارد، وتُبرد الساخن، لا يحس الساخن بنظيره ولا البـارد مع رديفـه. كقطـارين، يسـيران على سـكتين متوازيتين، وبسـرعتين متماثلتين، حيث يسـتحيل التوقف واللقاء معًا في محطة واحدة.

بدأت الطائرة بالتحرك، أعلنت إذاعة المطار استغراق الرحلة ساعة وثمانية وأربعين دقيقة، متوقعة وصـولها إسـطنبول حوالي السـاعة الحادية عشرة و ثلاث دقائق،و تمنت للمسافرين السلامة والراحة.إذًا على المستشار الإستعداد، فبعد ساعتين سيلتقيها، ما زال أول حوار

عبر الماسنجر مع عايدة بعد لجوئه إلى عينتاب قهرًا يطن في أذنه آخر حوار عبر الواتس حين طلبت منه اللقاء في اسطنبول:

- أريدك أن تنهي حكايتك.
- لم أفهم؟
- أريدك أن ترى الشامة؟

لا دور للزمن في عالم الأحلام، لا تعرف الرّوح الحرّة المنطلقة قيود وتسلسل الثواني والدقائق والساعات. لا حرّاس للأماكن والفصول. مع استواء الطائرة، وقد وصلت ارتفاعها الطبيعي وخفت ضجتها و مع استقرار و توازن الجناحين والذيل. أغمض المستشار عينيه يسترجع محطات جميلة لا حزينة، كشريط فيلم طويل نمرره بسرعة، تستوقفنا منه مشاهد، أول لقاء، أول حوار، أول هاتف، أول همسة، نبحث فيه عن واقعة حزينة أو مفرحة لا تتجاوز الثواني ويبقى أثرها كالجدري على جلد الزمن. سبعة أشهر أو ثمانية هي مدة الرحلة مع عايدة، كانت عاصفة، مثيرة، غيرت حياته للأبد، أخرجته من قيود كبلته، وكان الثمن باهظًا. هل كانت رحلته مع عايدة عتقًا له من أسر هدى؟ وهل يحل احتلال مكان احتلال؟ ها هو اليوم يشعر بخلاصه من ذلك الأسر الذي منعه الارتباط بفتاة أخرى؟ ساعات ويعرف ذلك، فهو على موعد لإنهاء الحكاية، لقتل الخيال الجميل، لإعدام تلك التوتة الوردية المزروعة في جسد أسمر.

كان المستشار يشعر بخفة الجسد والطائرة ترتفع إلى الألف متر، وكان قد اجتاز الزمن لاسترجاع أول حوار كان مع عايدة في خريف ٢٠٠٥، عندما شاهدها في أمسية موسيقية كلاسيكية، قدمها ثنائي ألماني وصـــل حلب خلال جولة شــرق أوســطية بدأت من قبرص فتركيا ثم حط رحالها في حلب قبل أن تنهي جولتها في بيروت. كانت منى –صديقتهما– تعرف عازف البيانو الذي رأته عدة مرات في المعهد الذي افتتح في بيت قديم في حي السريان القديمة بحلب، كان مؤسس المعهد شاب يعشق موسيقى الجاز والكلاسيك، وقام بتأســـيس معهد لتأهيل الكوادر الفنية، وكان ذلك العازف من أكثر الذين قدموا حفلات خاصـــة في ذلك البيت القديم الذي بدأت حوله مشـــكلة ميراث اســـتطاعت منى بجهودها أن تنقذ البيت ولكن تم إغلاق المعهد.

منى، ابنة مناضل سياسي يساري، قضى معظم حياته بين سجن واختفاء. تعود جذوره إلى قرية من قرى عفرين، من عائلة تملك عشرة آلاف شجرة زيتون وشريكة في عدة معاصر زيتون يدوية في عفرين، وكان جدّ منى رجلًا قويًا، ومن رجال رشـــيد إيبو أحد رجال الشـــيخ التركي الصـــوفي إبراهيم خليل ســـوغوك أوغلو، زعيم حركة المريدين في عفرين، تلك الحركة الاجتماعية الدينية التي واجهت الإقطاع والمستعمر الفرنسي. وبعد تخلي الكتلة الوطنية عن دعمها، وجه المســـتعمر الفرنســـي في آذار من عام ١٩٣٨ جيشًـــا جرارًا

مدعومًا بالطائرات التي قصـــفت قرى عفرين وهجرت الأهالي إلى تركيا ثم عادت بعد هدوء الأوضاع.

تعلق الجدّ في تلك المدّة بالقمار واشتهر بلقب القمرجي الذي خسر كل شـــيء وانتقل مع زوجتيه إلى مدينة عفرين حيث بقيت واحدة هناك مع أهلها الأغنياء، وعاش مع الثانية التي جلبها من قرية تركية مجاورة إلى حلب، وسكنا بداية في (براكّية) تركها أصحابها في حي الســريان القديم، لا يتذكرها حمو والد منى الذي ولد هناك، كان ذلك في عام ١٩٣٩، وعاشــت أم حمو حياة متعبة حين تركها زوجها الذي عاد إلى زوجته الاخرى الغنية و عاش معها ردحًا من الزمن ثم مات.

والدة حمو تزوجت من صــديق الجدّ، وانتقلوا إلى بيت أفضــل في حي الســـريان القديم بالقرب من كنيســـة مارجرجس للســـريان الأرثوذكس، ولم تتغير حياتها كثيرًا، كانت تعمل في غسل الصوف ورفو الملابس وتبكي في الليل لسوء حظها وقسوة أهل الجد الذين لم يقفوا معها. كان (حمو القمرجي) – هكذا عرف وسجل في النفوس – وحيد أمه، ولكن العم – الأب الجديد – كان قاســيًا مما دفعه أن ينام في مغارة من مغارات حيّ السريان وهو ابن عاشرة، ثم اكتشف مدافن الطوائف المسيحية، حين ذهب مرة مع جارتهم الأرملة، هناك اكتشف بأنها مقابر تشمل كل الطوائف المسيحية، ولكل مقبرة سور وباب، مقبرة للســريان الأرثوذكس، الســريان الكاثوليك، الســريان

البروتســـتانـت، الأرمن الأرثوذكس، الأرمن الكـاثوليـك، الأرمن البروتستانت، الروم الكاثوليك، الروم البروتستانت، الكلدان، الموارنة، وأيضــا مقبرة اليهود. وبات بعد ذلك المكان الأكثر إيواء له بعد وفاة والدته إثر ولادة عسيرة لم تنجُ منها. بات وحيدًا لا سند له، ولا أحد يعترف به، أشفق عليه المعلم كيفورك شقيق جارتهم الأرملة، وكان صاحب دكان حدادة، سمح له العمل والنوم في الدكان، وكان حمو نشطيًا وقويًا وذكيًا، هذا ما لاحظه كيفورك الذي لم يكن فقط يصنع أبوابًا ونوافذ من الحديد فقط، بل كان فنانًا يصنع أشكالًا فنية جميلة من الحديد، و كان يكسب منها كثيرًا، خصوصًا التماثيل المعدنية على شـــكل طاووس، كان يتقنها بحرفية عالية ويبيعها لزبائنه الإيزيديين، وذات يوم اكتشف كيفورك بأن حمو صنع طاووسًا مميزًا، كان الطاووس المعدني بحجم طاووس حقيقي، دهش كيفورك حين أخبره حمو بأنه كان يتســـلى به ليلًا حين لا يبقى أحد في الدكان. ربّت على كتف حمو وقال له "سـأخذك إلى شـخص يحب ذلك حبًا شديدًا، وكان ذلك الشخص هو مدّرس مادة الفيزياء والكيمياء معاوية السنجاري، المعروف باسم أبو حورية.

أبو حورية من ســـنجار واســـتقر في حلب بعد فراره من العراق مع زوجته وابنته الوحيدة حورية لنشـــاطه ضـــد النظام الملكي العراقي، وأصـبح سـوريًا وانتسـب للحزب الشـيوعي السـوري. قدم له المعلم

كيفورك الطاووس وحدثه عن وضـــع حمو، فرد أبو حورية الذي أبهجته الهدية: " من اليوم ســـينام حمو عندي هو ابن أخي من الآن". كان ذلك عام ١٩٥٠، وبات حمو القمرجي ابنًا لأبي حورية، وهكذا بات لحمو في ليلة واحدة بيت وعم.

كانت فراســـة أبو حورية في محلها، فبدأ يعلم حمو القراءة والكتابة الذي اتقنهما بســـرعة عجيبة، وبدأ يقدم له خلاصـــة أفكاره وحفظّه غيبًا مرجعين هما: ما العمل والدولة والثورة. وبدأ يعتمد عليه في تجنيد شباب الأكراد بشكل خاص بالتنظيم، وسرعان ما أصبح أنشط خلايا الحزب، كان مدّة الخمسينات طفرة في حياة أبي حورية وحمو وحورية التي كانت ناشـطة في منظمة تهتم بالأسـرة والشـباب تابعة للحزب ولكنها مستقلة إداريًا.

كان حمو قوي البنية مما ســـاعده كثيرًا في حماية عمه الذي كان على خلاف دائم مع رفاقه، كان أبو حوريـة على غير وفاق مع القيادة، فقد كان رافضًـا لفكرة التبعية المطلقة، واشـتد ذلك حين برر زعيم الحزب موقف الاتحاد السـوفياتي من اسـرائيل، وبدأ رفاق جدد يتوافدون على بيت أبو حوريـة الذي كان لا يختلف عن أي بيت سياسي في سوريا، حوارات ونقاشات وخلافات وتنظيرات، كان رفاقه يؤمنون مثله بأن الصـــراع الطبقي هو القوة المحركة للتاريخ ولا يتحرك التاريخ إلا في الصـــراع ضـــد الطبقة المســـيطرة المرتبطة بالاستعمار وتنفذ أجنادها. وكان الخلاف في رغبتهم بالتكتيك، وعقد

تفاهمات معهم، وكان أبو حورية يرفض ذلك فهو يؤمن بأن علاقة البرجوازية والامبريالية علاقة عضـــوية لا يمكن فصـــلهما، والتيار القومي المتصـــاعد هو شـــكل من أشـــكال البرجوازية بوجه آخر. وتحققت صـــحة نظريته حين قامت الوحدة مع مصـــر وتم حل الأحزاب، ثم اتبع تكتيك الصمت بعد سقوط اليسار في العراق وهو الذي كان يرى العراق هو سند سوريا، ما يحدث هناك ينعكس على سوريا، وهذا ما رفضـه حمو هذه المرة وبدأ في شـقاق سـياسـي مع عمه، كان حمو يصـــر على مقولة شـــيوعي لبناني أعجبه "لســـت مهزومًا ما دمت تقاوم" ولكن العلاقة بينهما كانت أقوى من ذلك الخلاف، بات جزءًا من العائلة وتوج ذلك بزواجه ب(حورية) في عام ١٩٦٠، لكنه لم يلبث سوى أسبوع إذ تمّ اعتقاله بتهمة تشكيل مجموعة إرهابية غاب فيها ثلاثة أعوام، ثم خرج بعد عام من انقلاب البعثيين. لكنه لم يعد إلى البيت مجددًا، كأن أبو حورية زاهدًا في العمل الســـياســـي، ومنشـــغلًا في تجارته مع العراقيين، وبات من أصحاب الطبقة التي يحاربها، هذا التغير سبب مشكلة لحورية أيضًا التي كانت لا تســـتغني عنهما وتخاف حمو أكثر من والدها، كان حمو شـــرسًـــا في حبه وعنفه، حتى حين رغب الأب أن يطلقها – لكثرة غيابه عن البيت لسجن أو سفر أو اختفاء – وصلته رسالة منه بأنه سيجعله مكان الطاووس الذي صنعه له ذات يوم.

في نهاية عام ١٩٧٢ تغيرت حياة حمو، لقد عاد من جديد، وصرح أنه ترك السياسة، فهو لا يقبل أن يكون ظلًا لحزب فاشي، وتزامنت عودته مع وفاة عمه الذي أوصى نقل رفاته إلى مسقط رأسه، وبقيت زوجته أم حورية هناك. واستقر حمو مع زوجته حورية عشرة أعوام كاملة، كان يغيب أحيانًا ولكن ليس كثيرًا، شهر أو شهرين، وحين أخبرته زوجته بأنها حامل غاب يومين ثم عاد وقال لها " لقد تعبت من الانشقاقات في الحزب، لقد طلقتهم". كانت حورية راغبة في طفل ولكن حظها مثل أمها بل أشد كانت تحمل بسرعة ولكنها تجهض بسرعة، لم يكن الجنين يستقر في بطنها، لكن في هذه المدّة استقر الحمل، ولعل هذا ما جعل حمو يستقر، ويفتح محلًا لبيع الزهور، وكانت قطعة الأرض التي اشتراها عمه قبل الوحدة بعام، و زرعها بغراس الزيتون بدأت تعطي ثمارها، وجلبت دخلًا مريحًا لهما. و خططا لشراء بيت في حي السريان الجديد٠.

جاءت منى في شتاء عام ١٩٧٧، ثم أخوها في نهاية عام ١٩٧٨، وكانت حورية حاملة بابنتها الثانية حين قبض على حمو أواخر عام ١٩٨٠. كان قد عاد إلى نشاطه في عام ١٩٧٩ وقد شكل مع رفاقه مجموعة عارضت كل مجموعات الحزب الأخرى فلم يسمع عن حمو بعد ذلك. وانتقلت الأسرة إلى بيت السريان الجديد، وبدأت حياة خالية من السياسة وإن بقيت الأم مرتبطة بمنظمة المرأة

ولكن بشـــكل ثقافي واجتماعي. إلى أن كبرت منى ودخلت كلية الحقوق.

منى رشــيقة الجســم هيفاء عيطبول. ســمراء البشــرة مع عينين سـوداوين كبيرتين، تملك نهدين صـلبين تعتني بهما ولا يسـمح لأحد العبث بهما كثيرًا مهما كان، تقول له "هناك مناطق أخرى لك، أما هذا لطفلي المدلل." لم يكن الطفل المدلل هو المسـتشـار. كان ذلك الشاب مؤسس المعهد الموسيقي، ابن عائلة مسيحية كاثوليكية ثرية ومتزمتة دينيًا. عشقته وعشقها، ذاقت عسيلته وذاق عسيلتها، اكتفى منها ولم تكتفِ منه، فتركها واتجه إلى كندا بعد إغلاق المعهد، تاركًا لها حبّ الموسيقى والفن، وكانت قضـية المعهد الذي أفتتح في بيت ورثة، هو سـبب معرفة منى بالمسـتشـار. طلبت منه مسـاعدته في حل قضية البيت القديم.

منى سـيدة طموحة وواقعية، لم ترزق بطفل، لكنها اعتنت بأسـرتها، وباتت بعد هجرة شـقيقها إلى السـويد سـيدة البيت. قرارها لا يناقش، لا محاسـب لتصـرفاتها. وقد مكنتها هذه الميزة بالحصـول على كثير من المكاســـب. تعرفت على المجتمع المخملي، وكان الشـــاب الموســـيقي منهم، وكســـبت الكثير من خلال صـــفقات العقارات والبيوت. وبلغت بها الجرأة أن توعد المســـتشـــار بأنها ســـتجعله المحامي العام خلال سـنوات. لكن الأحداث تسـير وفق المقدر لها، لم يكن المسـتشـار من النوع الذي يمكن أن تقوده، كانت علاقتهما

مميزة وصـريحة واضـحة. اتفاق شـفهي، يسـهل لها مصـالحها دون تحيّز أو جور وتعرفه على العالم المخملي دون ضـــجة. قالت له مرة حين سـألها كيف تنسـق وتوفق بين الرجال وعملها دون إزعاج الآخرين:

- الحب كذبة اخترعها الشـــباب للنوم مع الفتيات مجانًا. تلك كذبة كبرى، العطاء بقدر المنح. من يهدي ليرة ذهبية نعطيه قبلة وردية، ومن ينثر النقود كرذاذ المطر نفرش له البساط الأحمر.

ســـألته منى حين طلب منها التعرف على الطبقة المخملية دون ضجة:

- مالك ولهذا العالم؟

قال لها:

- أريد معرفة العالم الذي تجاهلني.

أدركت منى بخبرتها جرح المستشار، كان جرحه مشابهًا لجرحها، والجروح المتشابهة تقرب أصحابها، لقد جرحا من شخصين ينتميان لتلك الطبقة المخملية التي لها طقوســـها وعاداتها، تعرف منى بأن المستشار لن يكون يومًا لها، تفهمت إحساسه الذي يرافقه منذ قصة هدى، لهاذا لم تره كمشروع مستقبل.

أقيمت تلك الأمسيّة الموسيقية الكلاسيكية في إحدى قاعات فندق ذي خمس نجوم، تبدل اســـمه مع تبدل الأوصـــياء عليه. ذهب لحضـــور الحفل برفقة منى عاشـــقة الموســـيقى الكلاســـيكية والتي اضـــطرت لترك الحفل لظرف طارئ. كان أغلب الحاضـــرين من الطبقة المخملية، الوجوه هنا مختلفة عن وجوه عامة الناس، وكذلك الملابس، وأساليب الجلوس والتحية والمراقبة والابتسامة والتصفيق، متخلف تمامًا عن المجتمع الذي يعرفه، قطعة لا تمت إلى ســـوريا بصـــلة. رفض المســـتشـــار الحضـــور في البداية، لكن منى قالت له ســـتعرّفه على العازف الكبير، وأشـــارت إليه في الملصـــق الذي كان بين يديها. ما إن رأى الملصـــــق حتى وافق. كانت منى تهتم كثيرًا بالملصقات، ولديها موسوعة ضخمة من أفيشات الأفلام والتي تعود إلى ستينات وسبعينات وثمانينات القرن الماضي، تقول بأن الملصق هو أهم جذب ودعاية، وهو مدخل مهم لمعرفة غير مضـــمون الفيلم و غير أخذ فكرة عامة عن الفيلم من ممثلين ومخرج وتاريخ انتاج وقصـــة الفيلم، بل يعتبر مؤشـــرًا مهمًّا من مؤشـــرات تطور البلاد اجتماعيًا وثقافيًا. كم من ملصـــقات منعتها الرقابة المجتمعية أكثر من الرقابة الثقافية الرسمية، لذلك تحتفظ بملصق لفيلم مصري قديم بنســـختين نســـخة الممثلة فيها عارية الظهر والثانية ذات الملصـــق ولكن تم التعديل برسم فستان ترتديه الممثلة يغطي ظهرها العاري. وكانت منى تعرف اهتمام المستشار بالإبط، وكان الملصق يظهر

وجه عازف البيانو من خلال إبط عازفة الكمان التي كانت تتوسد الكمان.

سرّ كثيرًا لحضور الأمسية فقد كانت جميلة جدًا قُدمت فيها مقطوعات كلاسيكية جعلته يشعر بأنه يعيش في القرن الثامن عشر ويشهد العصر الرومانتيكي، كانت المقطوعة المميزة التي عرضت قبل الاستراحة هي (سوناتا) لفنان ألماني ظلم في عصره لأنه لم يجار (موضة) ذلك العصر، لكن تمّ احترام مكانته له فيما بعد. وكم من ابداع يظلم في وقته ثم تراه يطفو مثل كنز مدفون لا يقدر ثمنه.

وفي استراحة المنتصف صادفها، كانت عايدة تقف منفردة تدخن. تتأمل ملصق العرض، كان ملصق الأمسية ذات النسخة التي كانت مع منى. كانت ترتدي معطفًا جلديًا طويلًا أسود اللون، وكنزة بيضاء ذات بنيقة طويلة تصون رقبتها الطويلة. تأمل شعرها الأسود المطعم بخصلات بلاتينية منحها شخصية مميزة، جعلها تبدو كتحفة فنية في استراحة الصالة، منح الإضاءة عمقًا سحريًا، دفعت المستشار أن يقترب منها أكثر ويلقي التحية:

- مساء الخير

قطعت تأملها في الملصق وردّت التحية، ثم عادت إلى إكمال سيجارتها، فأخذ يتأملها... أنف دقيقٌ. عينان شبه مغمضتين. فمٌ

مائلٌ حائرٌ بين السعادة والرضا، يشي بأمومة وأنوثة غريبتين. كان أنفها يشبه أنف هدى، فكر بمدخل للحوار:

- الحفلة جميلة ولكنها باردة.
- عفوا؟
- أقصد لا روح فيها

أخذت من السيجارة نفسًا عميقًا، ثم طفقت تعفس بقايا السيجارة في صحن السجائر، ثم اعتذرت وقد رنّ هاتفها، ابتعدت عنه وبدأت تتحدث، أدارت له ظهرها، وكان مثل طفل يتلصص على جنية تغتسل وقت الشروق.

اتجهت بعد إنهاء المكالمة إلى مدخل القاعة، لحقها المستشار بصمت وبطء كمخبر سري، وراقب خطواتها التي توقفت عند سيدة ضخمة في أول صالة العرض، يبدو أنها ألمانية أيضًا، كانت تبيع أقراصًا مدمجة عليها صورة الثنائي الألماني، وأقراص أخرى لفنانين أخرين، اشترت عايدة نسخة من القرص الخاص بالثنائي الألماني ونسخة أخرى تبدو قرصًا لأوبرا، ثم اتجهت نحو بوابة الخروج. راقبها المستشار ثم التفت إلى السيدة الألمانية واشترى نسخة مدمجة من الأمسية ثم نسخة من قرص كتب عليه أوبرا عايدة.

سأل المستشار نفسه "هل هو القدر؟" حين كان اللقاء الثاني في بيت منى؟ كان ذلك بمناسبة الاحتفال بعيد ميلاد منى، بعد شهرين من حضور الأمسية الموسيقية. أمسكت منى بيد صديقتها واقتربت من المستشار وقالت هامسة في إذن عايدة:

- إنه القاضي زكريا العاشج، الذي حدثتك عنه.

ثم قالت للمستشار:

- صديقتي الفنانة التشكيلية عايدة.

دهشت منى حين رأت عايدة تصافح المستشار قائلة:

- عايدة أنت لا تصافحين من أول مرة "!

تبسما وقالا لها بأنهما التقيا قبل هذه المرة في الحفل الذي غادرته منى مبكرًة. تركتهما منى وانشغلت بضيوفها. سألته عايدة، وهما يتفرجان على مرح منى، عما أعجبه في الحفل، فأخبرها بأنه خرج من الحفل الفرنسي بمشهدين: الأول مشهد عازفة الكمان عند بدء كل حركة موسيقية، فقاطعته قائلة:

- ا ها.. تفهم بالموسيقى إذا؟

ابتسم بهدوء وقال لها وهو يشير إلى منى:

- من عاشر قومًا صار منهم.

تفحصته عايدة في تلك الليلة مرة أخرى، كأنها تعيد حكمها السابق عليه، ثم سألته:

- والمشهد الثاني؟

نظر في عينيها وهمس:

- مشهد استحمام حورية البحر على ضوء القمر.

- تقصد سوناتا ضوء القمر؟ لكنها لم تُعزف؟

- اقترب منها أكثر وقال وهو لا يصدق جرأته:

بلى كانت في الاستراحة تراقب ملصق الحفل وتدخّن.

ابتعدت عنه دون أية كلمة. كان المستشار جرئيًا جدًا معها، ولم يكن يدرك تصرفه هكذا، فسرها على أنّها ردة فعل، أو تعويض نقص، لا يريد تكرار تجربة هدى. فيما بعد، حين علمت عايدة عشق المستشار للمسرح وخاصة الأوبرا و اهتمامه بالفن التشكيلي، ضحكت وأخبرته بأنّه رجلٌ في مكان ليس له.

اختلس المستشار نظرة من نافذة الطائرة، فبدت الأرض بنفسجيّة اللون، قال لنفسه " لعله سحر اللون، وليس الابتعاد". ثم حدث نفسه " منى الحكاية التي انتهت، السيدة التي انقطعت صلتي بها، ماذا عن الأخريات؟". أغمض عينيه يتذكر رسالة عايدة على الواتس

تخبره بأنها تستعدّ للقدوم، ومعها هدية له، رسالة أصلية من رسائل الانجليزية تتحدث فيها عن جندي تركي ربما هو جدّه العاشـــج الكبير. طلب المستشار منها أن ترتدي فستانًا بنفسجيًا، أرسلته له على صورة قبّلة، وكتبت " ألم تتخلّص من أوهام الأساطير بعد؟"

كانت تقصد الأسطورة الانجليزية عن زهرة البنفسج (فيوليت)، تلك الزهرة التي كانت في الأصـــل فتاةً خجولًا، جلبها جنود ملك الثلج الذي شعر بالوحدة في قصره الجليدي وطلب من جنده أن يجدوا من يبثّ الســـعادة والدفء في قلبه، فوقع في حبها، تحول بفعل تأثيرها من قاس إلى لطيف، وتحولت إلى زهرة حين طلبت منه زيارة أهلها، فسمح لها الذهاب في الربيع والعودة في الشتاء. وحدث المستشار نفسه " كم تشبه حكاية الزهرة الأوروبية حكاية تموز الشرقي؟"

طلبت المضيفة من مسافر في الصف الذي أمامه أغلاق هاتفه بلطف، وتابعت سيرها. أغلق الرجل الهاتف على مضض. تبسم المستشار مسترجعًا هاتفها بعد عدة لقاءات في بيت منى والكثير من المكالمات الليلية، كان صوتها مبحوحًا دافئًا كنهار ربيعي:

- مرحبًا أنا عايدة.

طرق سمعه صوت رشفاتها، لا شك أنها تشرب شايًا ساخنًا محلّى بكثير من السكر لترطبَ حنجرَتها الجافة:

- ألو.. أين ذهبت؟

كان صـمته فرصـة للتعرف على صـوتها الذي لم يعتد عليه بعد، كانت الثواني التي مرت سـانحة لاسـترداد أنفاسـه ومسـح هول المفاجأة:

- أنا هنا.

ابتسـمت، وهي تسـتمتع ولا شـك من خلف الهاتف وعبر الأثير للمفاجأة التي لم يتوقعها.

- بل أنت غائب في حضوري.

- أنا لا أقدر على فلسفتك.

حين سمع ضحكتها، أدرك بأنّه وقع في شرك لن يقدر على الخروج منه.

- تعال إلى صالة السين أريد رؤيتك.

كانت صالة السين في حي السريان القديمة، يملكها فنان تشكيلي عاش معها ردحًا من الزمن، وله تأثير كبير عليها. بدا للمسـتشـار كخصـم مزعج، أدرك ذلك من عينيه ذواتي البريق الخدّاع، كان يشعر أمامه بالهزيمة..

زاره المستشار بعد سنوات من هجرتها، فوجد ذلك البريق لطيفًا، حينها شعر بإحساس يقربهما أكثر، فكلاهما مهزومان، وكلاهما كانا تجربتين مضتا في حياتها لا أكثر.

صالة السين هي بيت أرضيّ بغرف قسمت على بعضها، لا أبواب ولا نوافذ، لكن الجدر كانت كما هي، منعطفات ملتوية، لوحات تزين الجدران، ودهاليز وأضواء تسحر المكان، كأنك في ليلة من ليالي ألف ليلة وليلة. كانت الموسيقى هادئة تملأ المكان، وكان اللحن جميلًا معروفًا عثر عليه صدفة مؤلف موسيقي ثمل في زاوية شارع قرر التبول فيه.

كانت اللوحات ممتلئة برسوم هندسية أخبرته عايدة أنها تنتمي للفن التجريدي، ثمّة لوحة واحدة ساحرة، لجسد إمرأة بلا رأس، وقفت عايدة خلف اللوحة، واخفت جسدها باستثناء الرأس: أنظر. دنا منها وسألها:

- من أنت؟

تراجعت ثم همست:

- أنا لحن موسيقي مسفوحٌ على الأرض ينتظر من يلمّه ويعزفه.

حينها لم يكن المستشار قد عرف بأن صاحب الصالة هو حبيبها الذي أمضى معها خمسة أعوم من العشق الجنوني قبل أن يتركها

ويتزوج لتتزوج هي بعد ذلك بالضابط. أدرك المستشار ذلك بعد عدة لقاءات حينها كشـفت له السـر. جميع المتع والرحلات التي حدثته عنها بجنون كانت مع الفنان. كانت تحدثه أيضًـــا عن زوجها الضابط السادي العقيم. كم كان يعذبها بعنفه، وكيف كان يغتصبها مرة إثر مرة، لم تكن تســـتطيع الخلاص منه، جربت كل الطرق، ابتعدت عنه مرات، لكنه كان كالأخطبوط في كل مكان له ذراع، وأنه أملها كي يحرر جســدها من ذلك الوحش. وفي ذلك المســاء الربيعي أهدته كتابَ جيبٍ أخرجته من حقيبتها المزركشة، قالت:

– عرفت ولعك بالزهور. هذا كتابٌ يُعتبر مرجعًا لرموز الورد في فرنسا.

طبعت في تلك الليلة، قبلة هوائية لصـــديقها الرســـام الذي دنى منهما فجأة وقال:

– الميثولوجيا القديمة تشبّه المرأة بالورد، وما الزهور إلا صبايا قتلهنّ الحبّ.

انتبه إلى صوت المضيفة تسأله برفق ماذا يشرب، فطلب الشاي مراقبًا حركات يدها السريعة وهي تحضر الشاي ثم قدمت له الماء الساخن مع ظرف شاي ومنديل معطر وملحقات الشاي، فانشغل بتجهيزه.

تذّكر ذلك اليوم الصـــعب، يوم أخبرته منى طلب عايدة مســـاعدتها للتخلص من زوجها بعد أن عجزت، تريد منه تطليقها من زوجها، هي ســـتكون المحامية، فأخبرها برفق، أنهما أصـــدقاء، وليس متخصصًا في ذلك، لكنّه سيوصي قاضيًا شرعيًا صديقًا له، وكانت التوصـــية، وطُلقت عايدة من زوجها الذي عرف فيما بعد دور المستشار ومنعه نقض الحكم في محكمة الاستئناف لمعرفته بعض أعضائه أصدقاء الأستاذ. دسّ الضابط – حين علم ذلك – شخصًا من طرفه، اتهم المستشارَ بالرشوة، ولم يكن للمستشار حيلة إلا الاتصال بضابط أمن أكثر نفوذًا وبمشورة من منى وعايدة، الذي أنقذه من التهمة مقابل قضـــية ظالمة له، نفذها ثم اســـتقال من القضاء، واشتغل في شركة عقارات خاصة كمستشار قانوني له، عرف فيما بعد أن الوظيفة جاءته بناءً على توصـــية من عايدة. حدثَ كلّ ذلك في تموز ٢٠٠٦ والمدنية مفتونة بشخص له تسلّط كبير في لبنان افتعل حربًا مع إسرائيل وهو اليوم يمثل دوره المخرب في بلاد المستشار. عشرة أعوام مضت على تلك الواقعة، لم يلتقيا بعدها، انسحب المستشار من ذلك الجو، وانشغل بعمله الجديد، وبقي يتابعها عن بعد، إلى أن ســمع بأنها تســتعد الهجرة إلى بلاد تعترف بالإنسانية. كان ذلك في آخر لقاء فيزيائي بينهما، يوم زواج شقيقة منى. ليلة كانونية باردة قبيل حرق التونسي بوعزيزي نفسه، كانت آخر رقصة لهما معًا.

في تلك الليلة، حضر المستشار الحفل متأخرًا، وعندما وصل رأى جمهورًا كبيرًا منشغلًا بالرقص، استقبلته منى، كانت ترتدي فستانًا أخضر اللون، مفتوحًا من الجانبين، و جرّته منى إلى حلبة الرقص وقلبه يخفق، أفسحت عايدة التي كانت ضمن الحلبة مكانًا فتوسطهما، شعر بحرارة أناملها وهي تضغط بحنان على يده، لم يعرف مدة الرقص، لكنه شعر بتحرر روحي من الجاذبية وكاد يطير في السماء، كانت مثل الطيار المحترف وكان هو الطائرة التي تحلق بها عايدة كيف تشاء، إلى أن سمع صوتها يقول: "دعنا نسترح قليلًا."

في تلك الليلة، حين لفت الساق على الساق، قال لنفسه" تملك أجمل فخذين في العالم". شعر بتوق شديد ورغبة ملحة للتمدد على فخذيها و اتخاذهما وسادة يطير بهما وهي تداعب شعر رأسه الكثيف. تفحصته كعادتها مبتسمة ثم قالت:

- لا شيء أقسى من هدم قصر ولو كان من الرمل.

حضر العروسان، ابهجهما منظر وطقس الاستقبال وتحية الجمهور والرقص ثم الجلوس بينما فقاعات تملأ السماء وتتبعها الأوراق الملونة. كانت لوحة فنية تشبه لوحة النصر لأوبرا عايدة، كانت منى مغرمة بالمظاهر، قالت له بأنّ أختها ترغب حضوره شخصيًا حفل زفافها، وسألته كيف يكون مميّزا، قال لها ليكن مثل مشهد النصر في أوبرا عايدة. ارتفعت وتيرة الرقص، استلمت منى

ساحة الرقص وهي معروفة ببراعتها، لكن المستشار كان مشغولًا عنها بعايدة التي نهضت وقالت له:

- سأرد لك يومًا هذا الجميل.

دخلت ساحة الرقص، خلعت الحذاء وبدأت ترقص، في تلك الليلة، رأى المستشار عايدة في صورة بهية، ملكة من دون تاج، كأن المسرح والجمهور والكل في ساحة ملكها...ترقص والكل يراقبها وسمع المستشار صوتًا يقول " بالتأكيد شربت كثيرًا." ولكنه كان يراها في صورة أخرى مثل الصوفي الذي يرى في خلع الخفين خلعًا وطردًا للأفكار المانعة للوصول إلى الحضرة.

بثّت إذاعة الطائرة خبر اقتراب الطائرة للهبوط، وضرورة التقيد بقواعد السلامة، وعدم تشغيل الهواتف النقالة، والتأكد من أحزمة الأمان، أغمض المستشار عينيه محاوًلا التفكير بلقاء عايدة، وبدأ يتذكر ما سمعه من عايدة يوم وفاة والدها حين اتصل بها للتعزية.

كان ذلك في اليوم الأخير من عام ٢٠٠٨، اتصلت به منى وأخبرته وفاة والد عايدة. اتصل بها على الفور. كان أطول اتصال بينهما، كانت الساعة العاشرة ليلًا. كان الصمت يسود المكان، سأل عن صحتها أولًا ثم حاول مواساتها بأن الموت هو الحقيقة الوحيدة في هذا العالم. حاولت أن تبتسم، كان يستمتع جدًا بصوتها على الهاتف، فالصوت هو الوسيلة الأعمق والأصدق للتعبير عن

العاطفة، و سماع الصوت يفوق الرؤية، فهو تذوق و إدراك بالروح، ولكل صوت بصمة، وخلال عمله كان يدرك ويعتمد على الصوت أحيانًا في اتخاذ القرار الذي فيه لبس، فنبرة الصوت تحدد شخصية المرء بطريقة سحرّية، تعلّم من نبرة الصوت أن يطلق حُكمًا على صاحبه، وقلمّا يفشل، يعرف إن كان صاحب الصوت قويًا أو ضعيفًا، عدوانيًا أم مسالمًا، طموحًا أم كسولًا، منفتحًا أم منغلقًا، وكانت عايدة تدرك ذلك، وتستخدمه بطريقة احترافية تدهشه.

في تلك الليلة وحلب تحتفل مع العالم بموت عام وتنتظر ولادة عام جديد، أراد المستشار أن يكون بقربها، أغلق الهاتف وارتدى ملابسه على عجل وأسرع إلى بيت والدها الضابط الناصري غرب حلب، في حلب الجديدة أحد أحياء حلب الحديثة.

والد عايدة هو الضابط عاصم التتنجي من أشهر ضابط عهد الوحدة، و من أكثرهم لغزًا، ينحدر من أصول اقطاعية، تملك أراضي واسعة في غربيّ حماه، وكانت أسرته من الأسر العريقة المعروفة بثقلها المادي والمعنوي في المنطقة. كان لها دورها البارز في زراعة التبغ، وكانت تملك أفرانًا عديدة لتجفيفه، وكان لجدّه حظوة لدى الشركة الأجنبية التي لها حق امتياز التبغ ثم أصبح والده من المؤثرين في المؤسسة العامة للتبغ التي أُحدثت عام ١٩٣٥، يتذكر عاصم ذلك اليوم وكان عمره عشر سنوات، كيف اجتمع كبار ملاك الأراضي، و كيف لعب والده دورًا في توضيح

أهمية الشـــركة والذي ســـيلعب الدور ذاته عام ١٩٥١ حين أمّمت الحكومة السورية الشركة المذكورة وكيف أنها انتقلت انتقالًا فقط إلى ملكية الدولة وبعد يكون هناك مســـاس بنظامها وكيفية عملها وعلاقاتها. وكان من أشد المتطوعين حماسًا لإجراء تجارب زراعية لتوليد أصـــناف جديدة من التبغ للحدّ من الاعتماد على المســـتورد، وكانت كلمته مسموعة، وقد بدا ضـباط حماة تتولى قيادة البلاد، و كان الشـاب الوحيد من العائلة الذي دخل الكلية الحربية في حمص ثم أرسـله والده وكان يحب أن يكون لهم في المجال العسـكري رجل يعتمد عليه، إلى باريس ليدرس في كلية أركان حرب تخرج منها عام ١٩٤٧، وشارك في خمسة انقلابات متعاقبة، التي بدأت مع حسني الزعيم مســـتفتح الانقلابات في ســـوريا وانتهت مع حدوث انقلاب الانفصال عن مصر عام ١٩٦١.

كان الضـــابط عاصـــم مختلفًا عن أقرانه، محبوبًا من رؤســـائه ومرؤسيه، شخصيته مختلفة عن كثير من الضباط، فيها هيبة ووقار الإقطاعي ونفســـية وقلب الفلاح، كان يطيع أوامر قادته ويحب أن تنفذ اومره بدقة، كان قاسيًا على زوجته و أولاده، رحيمًا بأمه ووالده، لم يتصـــادم مع والده مرّة، حتى حين بدأ يكلمه عن (أكرم حوراني) وأفكاره، ورغبته في الذهاب معه إلى العراق لمؤازرة ثورة رشـــيد الكيلاني – وكان في الســادســة عشــرة – زجره والده وقال له " هذا الرجل يحمل معولًا للهدم وليس مجرفة للزراعة"، لم يحدث والده بعد

ذلك لا عن أكرم ولا أفكار أكرم، وشارك قلبه ودعمه السري انتفاضة الفلاحين، كان مؤمنًا بكل أفكار أكرم الحوراني، وكان يرى ما كان يراه أكرم الحوراني من أن الوحدة مع مصـر ستكون داعمة لصـمود سوريا التي كانت تحت تهديد غربي وسيطرة شيوعية وتحرش تركي في الشـــمال، وحين نبهه صـــديق له من خطورة وزير الداخلية في عهد الوحدة، وأنه مختلف عن مثله الأعلى، رفض ذلك وقال له " الأفكار كالبذور تحتاج لتربة صـــالحة ورعاية ســـليمة"، ربما لعبت العصـــبية الجغرافية دورًا في تلك المرحلة، فهو ابن بيئة ولا يمكن الانســـلاخ منها، لذلك كان صـــاحب حظوة وثقة عند ملك الإقليم الســـوري في عهد الوحدة. وبالمثل كان قاســـيًا فظ القلب على من يعارضـــه ويهاجمه، و وفيًا لمن يطاوعه. كان يحب أن يشـــارك الفلاحين منذ طفولته في كل مراحل زراعة التبغ، من بذرها وريّها ومعالجتها إلى قطفها ونشرها للتجفيف، و كانت هوايته المفضلة في أي مكان هو فيه زراعة بضع أوراق تبغ في اصيص ورعايتها ويقول لكل من يأتي مقولته المشـهورة: " التبغ كالإنسـان ينمو في أية تربة كانت، ويتأثر بها، وحســـب لون التربة يتلون. لذلك تجدها بألوان البشر".

كانت واقعة الصـــوفي التي وقعت في مدّة الوحدة نقطة انعطاف حاســـمة في حياته، حين زار القرية داعية صـــوفي مجهول، رفض تناول طعام القرية حين علم أنها تعتمد على زراعة التبغ، وقال لهم

أنه لا يأكل ورقة الشيطان. وأخبرهم بأن أصل نبتة التبغ هو لعاب إبليس حين لحق بأحد الأنبياء وأراد صرفه عن مهمته، فصفعه النبي صفعةً دحرجته إلى بطن وادي، وفاض من فمه لعاب كريه الرائحة، منه نبتت ورقة التبغ. حثهم الصوفي الغريب على زراعة الزهور بدلًا من التبغ التي تستهلك التربة وتقضي عليها. قال لهم " ازرعوا البنفسج، فهو شفاء للصدر، مطهر المعدة، منشط الكبد، مدر للبول، يفتت الحصى، ويقضي على الأرق، وينظف الدم". حين سمع أبو أكرم ذلك – وكان والد عايدة يكنى وقتها بهذا الأسم لإعجابه الشديد بأكرم الحوراني – و قد وافقت زيارته للقرية مع زيارة الصوفي للقرية، غضب وأمر بجلب الرجل ثم أمر تعليقه في إحدى غرف تجفيف التبغ، وقال للحاضرين سيترك إلى أن يجف ثم يفرم ويقذف في الوادي. لم يجرؤ أحد على الاقتراب من الرجل الذي بقي معلقًا حتى خرجت روحه. كانت تلك أقسى عقوبة يقوم بها، ويقال إنه في الليلة التي مات فيها الرجل رأى الصوفي يقول له: " كان تطهيري على يدك وكنت صاحب ذنب كبير، وسأكون ذات يوم مطهرك ". عاد صباح ذلك اليوم إلى القرية، وذهب بنفسه إلى غرفة تجفيف التبغ، وإشرف على دفنه ومن ثم لم يعد إلى القرية مجددًا. كان غريبًا، ولم يكن أحد قادرًا على محاسبة سليل عائلة كبيرة وصديق حاكم متنفذ في الحجر والبشر.

هذه الحادثة غيرت الضـــابط عاصـــم التتنجي الذي قاد ســـت مصـــفحات في طبرية في حرب ال٤٨، وشـــارك في الانقلابات الخمســـة الأولى من عمر ســـوريا الحديث، وبات من أهمّ رجال المنطقة الشـــمالية في زمن الوحدة، و منحت له ميزة التعاطف مع الضباط الآخرين، وهذا ما جعل ضباط انقلاب الانفصال رحماء به، وربما لأصوله الإقطاعية، وربما لشخصيته، فاكتفوا بفصله، فسافر إلى بيروت مع زوجته الحامل للمرة الثانية وهناك ولدت عايدة.

في بيروت الشرقية، بدأ بعض رفاقه يترددون إليه، كان يسكن في بيت وهبه له صـديق لبناني سـاعده كثيرًا، وكان يتردد إليه ضـابط صديق تحول إلى مجموعة بدأت تتحرك بصمت لإعادة وحدة البلاد مع مصر، وأخبره أنهم سيقومون بتصحيح الوضع، وينتظرون منه المشـاركة، لكنه اعتذر برفق وقال أنه اكتفى وبدأ تأسـيس شـركة تتعلق بالتبغ وتجفيفه وتصنيعه.

حين حدث الانقلاب الســابع في تاريخ ســوريا الحديث وذلك في شـــهر آذار وســـمع مشـــاركة بعض رفاقه قال لزوجه الحامل للمرة الثالثة:

- لنذهب إلى فرنسا لم أعد أطيق الانقلابات ولا المشاركات.

كانت عايدة تدخل عامها الثالث حين ولدت أمها شقيقها منصور، كان فرحًا به فوق الوصـف، فهو يشـبه جدّه منصـور الكبير، وكان

أكرم الولد البكر يغار كثيرًا، ولكنه كان ينفر من والده لحضـــوره مشهد تعليق الرجل الصوفي وهو ابن خمسة أعوام. وكان هذا الأثر دفع بأكرم ليدخل في تيار سـياسـي مناقض تمامًا لتيار والده، و يتم القبض عليه في أحداث الثمانينات. كان منصـــور هو الأمل، هكذا كان يفكر والد عايدة، يقول كلمته المشـــهورة أيضًـــا" الأب كالخياط يعرف أبناءه كمعرفة الخياط للأقمشـــة". شـــربت عايدة ماء باريس وكانت أجمل طفولة عاشـتها، كانت العربية والفرنسـية كثدي سـيدة حلوب، تربت في مدرسـة فرنسـية فتأثرت بالثقافة الفرنسـية، ونهلت من الثقافة العربية في البيت، وأحبت فن التشـــكيل، وكان الفضـــاء القادر على اســـتيعاب الحرية التي منحها لها والدها، بعكس أخيها أكرم الذي كان يزداد انفصـــالًا عن البيت، ويكثر من التردد إلى جماعات إقطاعية وصـناعية تأثرت من حكم والده، إلى أن حل عام ١٩٧٤، زارهم ذلك الرجل صـــديق العائلة القديم وابن مدينته وقد أصـبح في مقام مهم في مؤسـسـة هامة في سـوريا، وعرض على الضابط منصبًا مدنيًا، فوافق الأب وعادت الأسرة مجددًا إلى سورية، ولكن هذه المرة إلى حلب حيث عين الأب مديرًا لمحلجة من محالج القطن التي باتت تابعة للمؤسسة العامة لحلج وتسويق الأقطان في حلب و في تلك المدّة كانت المؤسسة بإدارة مجموعة من الحمويين، يعرفهم ويعرفونه.

في المدّة الأولى لم تتأثر العائلة كثيرًا فقد كانت تقضي الصيف في سوريا والشتاء في فرنسا، إلى أن أنهت عايدة ثانويتها، ثم دخلت جامعة حلب قسم الأدب الفرنسي، كانت كالشمس تسطع حرية ودفئًا. وكانت الحياة ساحرة لعايدة، دلال ما بعده دلال.

رسمت عايدة لوحة جريئة جدًا تتناول أعضاء الرجل وتسخر منه، انتشرت كالهشيم بين الطالبات وعرفت وقتها باسم عاشقة الأمير الفرنسي، لكن لا شيء يستمر، فجأة جاءت أحداث الثمانينات التي كانت قاسية على الأب والأم، فقدت أمها وأصيب والدها بشلل نصفي، وخسرت أخاها منصور.

لم ير المستشار زكريا الضابطَ عاصم التتنجي سوى مرة واحدة برفقة عايدة التي أخبرته عن رغبة والدها شكره، كان البيت في حلب الجديدة، أحد أحياء حلب الحديثة. كان يسكن في طابق أرضي لمبنى حديث ضخم. كان مدخل البيت واسعًا وجميًلا. كانت حديقة البيت مزرعة زهور صغيرة، وزهر البنفسج فيها طاغيًا، وبكل ألوانه وأصنافه، البنفسجي والأبيض والأصفر والبري والموصلي والهواري والحقلي وذي الزهرتين. كأن مهندس الحديقة صممها بحيث تلائم زهرة البنفسج التي تحب الظل، استقبلتهما خادمة ماليزية بوجه مبتسم ودعتها لمكتب الضابط.

كان والد عايدة – حين دخلا من الباب الخارجي للمكتب– يستمع لأغنية رباعيات الخيام، ويده على خده مقلدًا الشاعر أحمد رامي

وهو يصـــغي لأم كلثوم. كان ضـــخم البدن، مثلث الوجه، طويل الأنف، بقايا شـعره الأشـقر الخشـن يدل على طاقته العالية للتحمل. بارز الجبهة، أعطى انطباعًا عن تفرده بالقرار، قســمات وجهه تدل على طبع حاد، متمسك برأيه، لا يقبل التغيير بسهولة، ولكن البريق في عينيه يشـعرك بأن الحقد ليس من صـفاته، بشـرته تميل للحمرة، والشامة الصـغيرة على أنفه حسب التنجيم الصـيني يدل على احترام الذات والشجاعة وتحمل المسؤولية والوفاء.

ابتسم حين انتبه لهما، عدل من جلسته وحرّك دولابي مقعده نحوهما، ثم دعاهما إلى طاولة مســتديرة عليها أوراق وبضـــعة أقلام، وقال مرحبًا:

- أهلا بالقاضي المحترم.

ثم دقق في ملامح وجه المستشار وتابع:

- حدثتني عنك عايدة، أنت شـــاب وذكي، واتمنى لك مســـتقبلًا دون عوائق.

الخادمة كانت تتحرك مثل رجل آلي يعرف تمامًا ما عليه فعله، من خفض صــوت المســجّل دون كتمه، إلى تحضــير أطباق الطعام، وكانت الوجبة الرئيســـية لحم دجاج مع أرز وكان طبق الضـــابط خـاص فهو طبق من الجبنـة والخبز المحمص، وبـدأ الثلاثـة في

تناول الطعام بصمت، شعرت عايدة بكسر صرامة اللقاء فقالت لوالدها:

- القاضي زكريا مهتمّ بالزهور؟

توقف الضابط عن تقطيع الجبن ورفع رأسه ونظر إلى المستشار قائلًا:

- حقًا

تابعت عايدة بحماس:

- وهو خبير بزهرة البنفسج. أنه من عائلة متخصصة في زراعة الزهور؟

مسح الضابط فمه بالمنديل وسأله بلهفة:

- من أية منطقة أنت؟

سر المستشار لمبادرة عايدة وقال:

- من قرية شرقيّ حلب، قريبة من معامل الدفاع.

بدا القلق على وجه الضابط ثم قال:

- أعرف كلّ قرى حلب وسوريا، تقصد تل حاصل؟ تل عرن؟

– قريتي تتوسطهما، تسمى قرية العاشج.

توقف الضابط عن الطعام، ثم بدأ يسعل بشدة، ونقلته الخادمة عبر الباب المؤدي إلى داخل الشّقّة، بينما اومأت عايدة للمستشار بالهدوء وقالت له بلهجة الاعتذار:

– إنه كبير السن. لحظة وأعود.

لحقت عايدة بوالدها، وبقي المستشار محتارًا ماذا يفعل، وبدأ يتفحص المكتب. كان للمكتب بابان باب يطل على الحديقة يستعمل للضيوف وباب يؤدي إلى داخل الشقة، و كانت مساحة المكتب حوالي أربعين مترًا مربعًا، مستطيل الشكل، الجدران ملساء بلون بني فاتح يتلائم مع البني الداكن لخزانة الكتب وطاولة المكتب المصممان من خشب المضغوط الصناعي، أمام المكتب كنبة ثنائية من جلد البقر وعلى الجانبين كنبة فردية ذات الطراز. تتوسطهما خزانة زجاجية أعمدتها من خشب الزان الأحمر على شكل طاولة قصيرة كأنها حوض سمك الزينة ولكنها كانت مزينة بأوسمة وقطع تذكارية عسكرية و مجسمات حربية لسيف ذهبي مصغر، وبندقية آلية، ومسدس ومدفع ذهبي، وساعة حائط تعود لثمانيات القرن الماضي تواجه الأريكة الجلدية، وصورا تزين جدران المكتب، تظهر نشاطاته وفاعليّاته وذكرياته، صور له في بيروت وفي مزارع التبغ وباريس وحماة ودمشق، كانت هناك صور خاصة بالأبيض والأسود عرف المستشار من شخصياتها الرئيس جمال عبد الناصر و عبد

الحميد السراج وبعض شخصيات أخرى والزعيم عبد الناصر يسلم على مجموعة من الأطفال يرتدون علم سوريا الذي عاد مجددا مع بداية الثورة...كان أشبه بمتحف.

عادت عايدة بعد خمس دقائق، تعتذر وتخبر المستشار بأن والدها يحتاج للراحة. وحين همّا بالخروج لحقت بهما الخادمة تحمل علبة خشبية تشبه صندوق سيجار كوبي وقالت بلهجة هجينة:

- سيدي يعتذر ويكون سعيدًا إن قبل ضيفه هذه الهدية المتواضعة.

تعرف عايدة رفض المستشار للهدايا، أخذت الهدية عوضًا عنه وقالت للمستشار:

- هذا سيجار حموي، صنعه بنفسه.

حين وصل المستشار دار الضابط للتعزية كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة والنصف ليلًا. خصصوا مكتبه كمكان للتعزية، كانت الخادمة الماليزية تهتم بالمعزين، كان عددهم قليلًا، بضعة أقارب، وبضعة أشخاص، منى لم تكن موجودة، جلس بالقرب من عايدة، كانا ينظران إلى الطاولة المستديرة، وقالت له:

تذكر اللقاء معه، لقد ساءت حالته كثيرًا بعد ذلك اليوم، كان يبكي ويقول أي عقاب هذا، لقد عانى كثيرًا، لكنه لم ينهار أبدًا، حتى في أثناء تلك الأحداث في الثمانينات، لم ينهر هكذا، حين بدأت أحداث

الثمانينات. رأيت الدماء تجري في حينا القديم. شـــاهدت تفتيشـــهم لبيوتنا. قلق عليّ من مسـلح اغتصـبني بعينيه، ولكن كان صـامدًا، وحين وصـل خبر مقتل أخي منصـور الشاب لم يبك، تأثر وأصـيب بالشـــلل لكنه لم يذرف دمعة. وحين فقدنا أمي لم يجزع بل صـــبر، وحين تقرر زواجي لم يعلق، اكتفى بدمعة فســـرت أنها فرحة، كان زواجي ثمنا لخلاص أخي، تم تهريبه بمعرفة ذلك الضـــابط الذي تزوجني، كان عنصـرًا من عناصـره، لكنه لم ينهار، حدث أمر ما بعد زيارتك، هل تذكر شيئًا عنه في قريتك؟

لم يجبها المستشار، اكتفى بالنفي، وحاول تغير الحديث فسألها:

- هل سيأتي؟

أخي لن يعود، يكتفي بإرســال النقود، وأظنّ أنه ســيتوقف بعد الآن وسيصرف الخادمة ويغلق البيت.

وبعد لحظة صمت سألها:

- هل غادرت منى مبكرة؟

ابتسمت وهي تنظر إلى الساعة التي تقترب من الثانية عشرة ليلًا:

- تعرفها، تقدس ليلة رأس الســنة، عيدها الذي تعترف به، ولا شـــيء يمنعها عن التمتع به.

ابتســما وهما يتبعان ســاعة الحائط أنظارهما التي بدأت تدق دقات موت عام وولادة عام جديد.

انتبه المستشار إلى صوت مضيفة الطيران تقول له:

- نستعد للهبوط لا تنزعوا الأحزمة.

المحطة الرابعة مطار أتاتورك

كان المســـتشـــار آخر النازلين من الطائرة التي هبطت بعيدًا عن بوابات المطار، أســرع نحو الحافلة التي تقلّ المســافرين إلى مبنى الركاب وبدأ يشمّ هواء اسطنبول المشبع بالرطوبة والذي يذكّره بهواء الساحل السوري حيث كان يقضي بضعة أيام للاستجمام. لكنْ شتان بين هذه الساحة وساحة مطار دمشق الذي زاره مرةً واحدة قبل أربعة عشـــر عامًا حين ودع هدى الوداع الأخير، وخطر له خاطر أين هي؟ ثم طرد ذلك الخاطر وبدأ يفكر باللقاء المرتقب.

ما إن دخل مبنى الركاب حتى شغّل هاتفه وبدأ يتفقد الرسائل التي توالت كوابل الرصاص.... كتب إلى عايدة " لقد وصلت اسطنبول"، ردت عليه بسرعة " أين أنت الآن؟"، كتب لها " في المطار"، كتبت له " نلتقي بعد ساعتين عند ساحة تقسيم ".

أغلق المسـتشـار هاتفه، وراقب المسـافرين الذي وقفوا أمام سـير الحقائب ينتظرون حقائبهم، وبينما هو يســتعد للخروج من صـــالة المطار شـمّ عطرًا يعرفه جيدًا، وسـمع صـوتًا مألوفًا، كان الصـوت قادمًا من سير حقائب المسافرين لطائرة أخرى يبدو أنها وصلت قبل طائرته بقليل، التفت نحو مصـدر الصـوت ولم يُصـدّق! إنها هدى، بشـحمها ولحمها، لم تتغير كثيرًا، لكنها اكتسـبت بضـع كيلوغرامات جعلتها أقصـر، وارتدت حجابًا هذه المرة، ولكنه يستطيع تمييزها من بين ألف سـيدة، تقدم نحوها بخطوات مضـطربة، كانت منهمكة مع

موظف تتحدث معه بلغةٍ تركيةٍ ممزوجةٍ بالإنجليزية، اقترب منهما وقال لها بالعربية:

- هل يمكنني مساعدتُكِ؟

قطعت حديثها مع الموظّف وقالت للمستشار:

- تعرف تركي، كتير منيح، لو سمحت..

ثم صمتت تحدّق بالمستشار هنيةً لتتأكد، ثم هتفت:

- زكريا العاشج!

وأسرعت نحوه وكادت تحتضنه حسب الطريقة الغربية ثم تراجعت وقالت له:

- مش معقول، يا ربي

- دعينا نحلّ مشكلتك ثم نتحدّث.

- لقد أضاعوا حقيبتي.

التفت المستشار نحو الموظف وفهم منه أن جميع الحقائب تصل إلى هنا وأنها استقلت طائرتين لتصل إلى اسطنبول وهذا يحدث أحيانا أثناء تبديل الحقائب بين الطائرتين وعليها التوجه لموظف مكتب المفقودات.

استقبلهما موظّفُ مكتب المفقودات وطلب منهما بعض المعلومات عن مكان فقدان الحقائب ووقت وتاريخ الرحلة والاســـم وبعد ذلك طلب منهما الانتظار لدقائق.

قالت هدى للمستشار:

- شكرًا لمساعدتك.
- العفو.

ثم تأملته مليًا وقالت له:

- لم تتغيّر! أنت كما أنت.

ابتسم المستشار وقال لها:

- وأنت كذلك

مرّت لحظة صمت، لم تدم كثيرًا وكعادتها سألته:

- توقعت أن أراك في تركيا ولكن ليس هنا

صمت لحظةً ثم قال لها:

- هي الحياة، التفكير في سيرها صعبٌ، علينا متابعةُ ما علينا في كل لحظة.

ابتسمت وقالت له:

- ما زلت احتفظ بهديتك في باريس.
- كنا صغارًا.
- ليتنا بقينا صغارًا
- البقاء لله وحده. كلّ شيءٍ يتغير.

عاد الموظّف بعد جولة على أرشيفه ولم يعثر على شيء فقال بأنّ عليها الاتصال بعد يومين، ومن المؤكد أن الحقائب رحلت خطأً بالطائرة الأخرى، ثم طلب منها ملء استئمارة تذكر فيها محتويات الحقائب المفقودة وأن شركة الطيران ستعوضّها في حال ضياعها.

لم تكن الحقائب ذات أهمية كبيرة فهي تحوي بعضًا من ملابسها وبعض الأشياء الصغيرة والحاجات الأنثوية. وبعد أن وقّعت على الاستئمارة طلب منها إبلاغ شركة الطيران.

في طريقها لمكتب شركة الطيران جاء شاب يبدو كأنه مرافق شخصي لها، توقفت وقالت للمستشار: " شكرًا جزيلًا، أسعدتني رؤيتك هنا، لن أشغلك، إن أحببتَ نوصلَكَ إلى المدينة، ولكن اسمح لي أن أراك اليوم، فلك أمانة من والدي، وتوقعت أن أراك في تركيا وصدق حدسي".

تفاجأ المستشار وسأل:

- أمانة؟

ابتسمت وقالت له:

- وأنا لم أكن أعرف سأخبرك مفصلًا هل لي أن أطلب رقم هاتفك؟

قيّدت هدى رقم هاتف المستشار في هاتفها ثم قالت له:

- انتظر مني مكالمةً ليلاً.

كان المستشار يتوقع كلّ شيء إلا الأمانة، ما هي يا ترى؟ ولماذا بعد كل هذه السنوات؟ ولماذا لم يعطه الأستاذ الأمانة وقتها؟ شغلت الأمانة حيزًا من تفكيره ثم طرد ذلك وقد جاءته رسالة صوتية من عايدة عبر الواتس تقول فيها:

- عزيزي زكريا قد أتأخر قليلًا، تمتع برؤية شارع الاستقلال ريثما أصلُ.

ابتسم واتجه نحو (المترو) وهو يقول في نفسه: " ماذا أيضًا يا تموز؟"

المحطة الخامسة المترو

اســـطنبول تختلف عن كل مدن تركيا، فهي جســـر بين الشـــرق والغرب، وتـاجٌ يربط بين أهم قـارتين، تلحظ ذلك من خلال حركـة الناس في عالم الأنفاق، كأنه المحشـــر، لا أحدَ يهتم بأحد، فالكل منشـغل بذاته، بلد الهرولة، ومن لا تسـعفه الخطوات السـريعة تنجده مسارات المشاة المتحركة، فالكلّ في سباق مع الزمن، والملابس هي أفضـــل قراءة للبشـــر، ألوان متعددة وأطرزةٍ مختلفة، تجد الســـافر والملتزم والمتزمّت، الكاســـي و العاري يســـيران جنبًا إلى جنب. في حين تتميّز المـدن الصـــغيرة بنمط ولبـاس متقـارب، وفي المـدن المتوســـطة، تجد الأحياء تفرض نمطًا معيّنًا من الملابس، فاللباس يعبّر عن شـخصـية الإنسـان، وهويته، وأحيانًا يكون المظهر زائفًا وخادعًا، ولكنّه في الحقيقة كشفٌ لفكرٍ أوعقيدة أو ما يرغب الإنسان أن يتطبّع به.

هل هو حقًا للزينة أم هو للســـتر والوقاية؟ هذا ما ســـأله لنفســـه المستشار زكريا وهو يقف أمام محطة المترو ينتظر مترو اسطنبول المعروف بـM1، والذي يربط المطار بمحطة يني كابي أي (الباب الجديد)، ومنه سـيأخذ مترو M2 الذي يوصـــله إلى تقسـيم. هناك خمسة خطوط للمترو في اسطنبول، وهو من أطول الخطوط ويرمز لـه بـاللون الأحمر في الخرائط الدالـة على خرائط وخطوط ســـير المترو، ويمر بخطّ مستقيم على ثلاث وعشرين محطة، كلّ محطة مدينة، وكل مدينة جزيرة، وكل جزيرة دولة بحدّ ذاتها، وهذا ما يفسر

هذا الكم الهائل في الألوان والأشـــكال. حتى إنّ هدى التي يعرفها بطراز غربي، وجدها في اسطنبول ترتدي الطراز الشرقي، إنه تعبير عن تحوّل وتغيير، فلم الإصـــرار على الألوان وشـكل الهندام، تجد الألوان الداكنة كالرمادي والاســـود والكحلي والبني للوقار والمهمات الرســـميّة، وتجد الألوان الزاهية للفرح والشـــباب. وحتى النماذج المتشـــابهة يتفاوت ثمنها وقد يفوق أضـــعاف ثمن نظيرها، واللباس هويـة الفرد وتعبير ظـاهري عن معنى بـاطني، ولكنـه خـادع وربمـا جُعل يوم الحشر مجردًا من اللباس لهذا السبب.

ثمّة شابّ شكله أقرب إلى المشردين، في يديه "برشور" يوزعه على الناس مجانًا. تناول المستشار نسخة من "البرشور" ثم وقف ينتظر مترو اسطنبول البرتقالي المعروف باسم M1.

توقف المترو وفتح بواباته بســـرعة. وترجل منه ركاب هرولوا إلى غاياتهم، واندفع إليه ركاب آخرون يسعون إلى أهدافهم أيضًا، ومنهم المســـتشـــار الذي أنعشـــه الهواء الرطب البارد المتدفق من فوّهات تكييف مترو الأنفاق، وبحث بعينيه عن خريطة ترشـــده إلى طريق يسلكه حتى يصل ساحة تقسيم. كانت خطوط المترو بألوان مختلفة للتمييز بين خطوطها ومســـاراتها، وبينما المســـتشـــار يقرأ الخريطة المثبتة على باب عربة المترو ويتابع ســـير اللون الأحمر رمز خط مترو اســـطنبول كان ثمانون بالمئة من الركاب منشـــغلين بهواتفهم

الجوالة يتفحّصونها، هذا يقرأ رسالة وذاك يصغي إلى شيء اختاره وآخر يتابع الاخبار..

نظر المستشار إلى ساعته فوجدها تشير إلى الثانية عشرة وخمس دقائق، وحسب خريطة الموقع على الإنترنت سيحتاج حوالي ساعة وخمس دقائق ليصل إلى تقسيم، ثم لاحظ المستشار مكانًا شاغرًا جلس وبدأ يقرأ البرشور بصمت:

التاريخ ١٥ تموز، الساعة التاسعة والنصف مساء، المكان: مسرح جميل "توبازلو"، العنوان: الحريات، شيشلي اسطنبول، برعاية وزارة الثقافة والسياحة، تقديم فرقة أنقرة للأوبرا والباليه، المسرحية الغنائية من ثلاثة فصول والمدة مئة وثمانون دقيقة.

ابتسم المستشار وقال عايدة تلاحقني، ثم عاد لقراءة البروشور الذي يتحدث عن موضوع الأوبرا:

تجري أحداث الفصل الأول في صالون من قصر فرعون في "ممفيس"، اللوحة الأولى القائد "رادميس" يتحدث مع كبير الكهنة "رامفيس" الذي يخبره بأن الآلهة اختارته لقيادة الجيش المصري لمواجهة الجيش الحبشي الذي تمركز في طيبة ويستعد لاجتياح مصر، ويعلن "رادميس" بأنه سيذهب للحرب ويعود منتصرًا، تدخل ابنة فرعون الأميرة "أمنيريس" مع خادمتها الأسيرة الحبشية عايدة ابنة ملك الحبشة. "أمنيريس" تحب "رادميس" الذي لا يهتم بها، فقلبه

معلّق بعايدة، نظرات العاشـــقين لا تفوت على "أمنيريس" التي تبدأ بالشـك والغيرة، يدخل فرعون مصـر مع حاشـيته، ويتبعهم رسـول الأخبار بأن ملك الحبشـة يدمر كل شـيء وهو قادم إلى مصـر. فرعون يختـار رادميس قـائـدًا للجيش، ويـذهـب الجميع إلى معبـد "فولكان" لأداء الطقوس. عايدة تحتار بين لوعة الحب ونداء الوطن لمن تدعو أتدعو لحبيبها أم لوالدها؟"

توقف المستشار عن القراءة، وألقى نظرةً ليعرف أين وصل، ثم تابع القراءة صامتًا:

تجري أحداث اللوحة الثانية في معبد "فولكان" حيث الاحتفال الكبير بتنصـيب "رادميس" قائدًا للجيش وتقليده السـيف المقدس من قبل كبير الكهنة "رامفيس". وفي اللوحة الثالثة تصـل أخبار انتصـار الجيش المصـري على الحبشـي، وتنتهز "أمنيريس" الأخبار لتتأكد من شـكها، فتخبر عايدة بأن "رادميس" قتل، ردة فعل عايدة تجعلها تتأكد من حبها "لرادميس"، فتخبرها بالحقيقة وأن "رادميس" انتصـر وسـحق الجيش الحبشـي ولا يمكن لأسـيرة أن تنافس أميرة في حب الفارس. وتصـور اللوحة الرابعة وهي فرح فرعون مصـر وحاشـيته وشـعبه بالنصـر في مدينة طيبة، واسـتقباله للقائد المظفر في مدينة طيبة ومراقبة مرور الأسـرى، بعدها يعلن فرعون بأنه سـيحقق كل رغبات "رادميس" ويضـع على رأسه تاج النصر، ويكون عمو نصر ملك الحبشة من بين الأسرى لكنه لا يفصح عن هويته، وتهرع نحوه

عايدة، لكن عمو نصـر يهمس لها بأن لا تفشـي سـره، ويقدم نفسـه بأنه قائد من قواد الجيش الحبشـــي، طالبًا الصـــفح، إلا ان الكهنة تطلب قتل الأسـرى، ويكاد فرعون يوافق على رغبة الكهنة في القتل لولا أنّ "رداميس" الذي يطلب الصـــفح عنهم فيقبل فرعون ويقرر تزويج ابنته "لرادميس".

رفع المستشار رأسه وألقى نظرة أخرى على المحطة التي وصل إليها المترو ثم تابع القراءة بصمت:

يتألف الفصل الثاني من لوحة واحدة، تجري في معبد "فولكان" حيث يجلب "رامفيس أميرنيس" إلى لمعبد للدعاء قبل الزفاف وعايدة هناك تفكر في وطنها وحبها، أما والدها الذي يعرف قصـــة حبهما ويرى ذلك مفتاح نصره يطلب من ابنته معرفة سر خطة الجيش المصري الذي يستعد للانقضاض على الجيش الحبشي القادم لاقتحام مصر وإنقاذ ملكهم. وترفض عايدة طلب والدها في البدء ثم تُذعن ويختفي عمو نصـر وينصـت لحوار بين "رادميس" وعايدة الذي يخبرها بأنه سيأخذها ويهرب عبر طريق سري هو الطريق الذي سيسلكه الجيش المصري وهو مضيق نابنا، وهذا هو السر الذي رغب بمعرفته ملك الحبشـــة وكشـــف عن هويته محاولًا قتل "أمنيريس" فقام بصـــده "رادميس" فتوارى عمو نصـــر وابنته عايدة ويســـلم "رادميس" ســـيفه "لرامفيس".

يرفع المستشار نظره ليتأكد من أنه لم يصل للمحطة المطلوبة ثم يتابع القراءة بصمت:

يضم الفصل الثالث لوحتين في الأولى محكمة كبيرة نرى فيها الأميرة "أميرنيس" تتلظى بين الحب والغيرة، وتعرض على "رادميس" الخلاص من العقاب مقابل التخلي عن حبه (عايدة) ولكن "رادميس" يرفض العرض ويطلب القصاص فقد خان بلاده بإفشاء السر، وتبدأ جلسة المحاكمة ويُحكم عليه بالموت ودفنه حيًّا في مقبرة. وفي اللوحة الأخيرة تصور مدفن "راميس" الذي يفكر في عايدة التي تظهر في المدفن وتخبره بأنها دخلت سرّا لتموت معه، بينما نشاهد "أميرنيس" تدعو فوق المدفن لروح "راميس" بالسلام.

انتبه المستشار إلى أنه اقترب من محطة يني كابي وسأل نفسه: " هل كل ذلك صدفة؟ تموز ماذا بعد؟"

المحطة السادسة تقسيم

وصل المستشار إلى ساحة تقسيم التي ستجمعهما مثلما تجمع المشرّدين مع السائحين، والعاطلين مع المتظاهرين، والفنانين مع المتسولين. ساحة تقسيم التي تعتبر رمزًا للحداثة الكمالية، ومركزًا للمدينة الحديثة، وهي أشبه بمسرح مفتوح للتظاهرات السياسية والمدنية، فالجماعات والتيارات والمؤسسات السياسية والمدنية تنشر غسيلها هنا.

كانت عايدة تقف شامخةً كقلعة على سفح جبل. نهداها، أنفها، شفتاها، أردافها بدت كفيالق جيش مستنفر. كانت تريدي قميصًا أبيض اللون دون أكمام وبنطال جينزٍ مطاطيًّا فيروزيًّا وقفت تنتظر وتراقب، وكان هو يبحث في ثنايا جسدها عن أشياء عزيزةٍ فقدها منذ سنوات كان أصعبها وأفجعُها بلاده. وكان يفتّش عن تلك الصّور المخزّنة في ذاكرته، عن بقعة مر بها معها أو بدونها. عن لهفته لرؤية جسدها، بعد كل هذه السنين، تلك اللهفة التي تشبه ظمأ شارد في صحراء الشتات، يسعى لماء النجاة قبل أن يدركه الموت. كانت تراقب خطواته المتعثرة، كصياد يبحث عن صيده الذي قنصه، كان كسكيّر يترنح أكثر كلما حاول أن يثبت توازنه ويوهم عدم ثمله. كانت تبتسم وهي تراقب هبوط الحمام وتحليقه في ساحة غدت مثل مدرج مطار في اسطنبول.

قالت له:

- سررت برؤيتك، ها أنت لم تتغير.

- وأنت ازددت جمالاً.

ابتسمت. وكانت عيناه كماسح ضوئي يبحثان عن الشامة الوردية. ثم توجها نحو بائع كعك، اشترى كعكتين. وجلسا على كرسيين خشبيين صغيرين. قضمت جزءًا من كعكتها وقالت له وهي تراقب المارة:

– من كان يظنّ بأننا سنلتقي مجددًا في اسطنبول.

لم يجب كعادته، حاستا الجوع والعطش يفقدهما حينما يكون معها، كانت تأكل ببطء وإغراء. تحتسي الشاي بانتشاء. تراقب البشر، بشر من مختلف الألوان والأحجام. سألها:

– هل مازلت ترسمين؟

– لا، لم أعد أرسم، أنا أعيشه.

قضمت من كعكتها قضمة صغيرة وراقبت سرب الحمام الحائم الذي حط في الساحة يلتقط الحبوب التي ينثرها العشاق.

كان يختلس النظر إلى الإبطين الناعمين العاريين الرقيقين الفواحين وهي تعيد عقد شعرها، فوجئ بسؤالها:

- لِمَ الإبط؟

انتظر فراغها من عقد شعرها وإسدال ذراعيها وقال:

- لا أدري، ولكن ألم تخلق أمّنا حواء من ضلع أبينا آدم؟

ضـــحكت ثم خطفت الكعكة التي كانت بيد المســـتشـــار، مراقبة مجموعة من الســـيّاح الآســـيويين يلتقطون الصّـــور التذكارّية مع الحمام، وسألت:

- تذكّرني بمنى.

- هل أنت على تواصل معها؟

- كنت... ولكن الآن وضعها اختلف.

- كيف؟

- بعد تعرّض الإيزيديات للاغتصاب من قبل المتطرفين باتت تتكلم باســـمهّن وتطالب بحقوقهّن اليوم في أوروبا، ولها دورٌ كبيرٌ في متابعة قضيتهنّ.

ثم توقفت عن الكلام وبعد أن تأملته مليًا سألته:

- هل حجزت فندقًا؟

- لا؟

- إذًا لنذهب حيث أقيم، خصصت اليوم لك.

توقف فجأة، وقال لها:

- ليس قبل أن أعرف السّر.

استغربت ثم تساءلت بعينيها عما قصده، فقال لها:

سرّ اضطراب والدك في تلك الليلة حين علم مسقط رأسي.

نهضت ثم امسكت بيده وقالت له:

- ســـتعرف.. دعنا أولا ننهي عقدتك. وأثبت لك بأني لســـت عايدة مصر.

وقف المستشار ثم قال بهدوء القاضي الذي يتخذ قرارًا حاسمًا:

- ثمة أمر آخر.

نظرت بدهشٍ أشّد، وتابع قائلًا:

- لابد من الزواج.

جلســـت مرة أخرى ثم قالت له وهي تنكش بقدمها اليســـرى بقايا سيجارة:

- فعلاً لم تتغير.

- لا بـل تغيرت كثيرًا جميعُنـا تغيّر، المجتمع يتغير والمـدن تتغير والنفوس تتغير.

- يبدو أن الحرب حولتك لفيلسوف متدين.

- ليست حربًا إنها ثورة، كلّ فرد منا أصابه من هذه الثورة ما أصابه.

اقتربت منهما سيدة عجوز تبيع زهور القرنفل الأحمر. فاشترت زهرة وقدمتها، قائلة:

- نجد شيخًا سوريًا يزوّجنا.

تناول منها زهرة القرنفل وشـمّها، ثم ضـحكت حين رأت عودته لذلك الطفل المحبّب وقالت له وهي تداعب رأسه:

- فعلا أنت لم تتغير. لنذهب إلى شقّتي حيث أقيم، هناك مكان يتسع لكلينا، وليلًا نتحدث ونقرر.

المحطة السابعة الشّقة

كان مكان إقامتها قريبًا من ساحة تقسيم، شقّة صغيرة مؤلفة من غرفة نوم واحدة، ومطبخ ملتصق بصالون صغير، وحمّام دشّه مكسور، اكتشفه المستشار حين دخل فورًا إلى الحمام ليفرغ البول الذي تجمّع في مثانته، وحين خرج وجدها في المطبخ تدخن بشراهة، كانت رائحة العفونة والرطوبة تملأ المكان، وما إن دنا، حتى دفنت سيجارتها في صحن وسخ، ثم امسكت بيده وجرته إلى غرفة النوم.

بجانب السرير وقرب النافذة المطلة على الشارع الضيق الذي يعدّ أحد أفرع الطريق الرئيس من تقسيم إلى حيّ بي أوغلو، كان هناك حامل رسم معدني مثبت عليه لوحة لم تنضج بعد، وبالقرب منه صندوق خشبي من عدة طبقات مفتوح تجد فيه كل ما يحتاجه الرسام، من فراش وأقلام وممحاة وألوان وسكين ومقص ومشرط.

ابتسم المستشار وقال لها:

- مرسم متنقّل.

كانت اللوحة لسيدة وحولها نفر من الرجال والعبيد، ثمّة رجل جالس راكع أمامها، وفارس يستعد لقطع رأسه، في العمق جيش جرار، أما السيدة فقد كانت واقفة على تلة من أجساد الجنود. كانت شبه عارية، وثمة حبة توت كبيرة تزين سرتها، قالت له:

- إنها لوحتي الجديدة.

تأمل المستشار اللوحة ثم قال:

- هل لها اسم؟

- نعم

فكر قليلًا ثم نظر إليها وقال:

- عايدة حلب؟

هزّت رأسها بدلال، تنفي حدس المستشار، وقالت:

- لا.. العضّاضة.

دنت منه كلبؤة تستعد لالتهام فريستها وقالت:

- سأنجب منك قبيلة.

دفعته فوق السرير، وبدأت تقبله من عنقه، وجهه، فمه، أنفه، ذقنه، ساعديه، صدره، ثم قامت وتجردت، كان يرى الجسد مجردًا أول مرة، وكان يبحث عن تلك الشامة، ثم بدأت تبتلعه، لم تكترث ببرودته، لم تكن تهتم بخيبته حين لم ير الشامة، و لم تكن هناك فرصة للسؤال عنها، كانت مثل عاصفة بحرية في ليلة شاتيةٍ مظلمة مزقت سفينته، وكان كالّربان الذي يحاول أن يسيطر على السفينة، لكن هيهات هيهات، فلامجال لتفادي العاصفة وقد أصبح داخلها، وبدأ شوقه للغوص عميقًا كشوق القبطان لمعرفة ما خلف العاصفة،

كان بحاجة إلى الغوص عّله يعثر على الشـــامة في قلبها، وكان الالتحام عظيماً، وبعد أن هدأت العاصـــفة، وانقشـــعت الســـحب، أشعلت سيجارة وقالت:

- الآن سأرتاح.

تفحّص المستشار جسدها، انتهى الوهج، يقولون بأن المشاهير تبدو أكثر طولا من الواقع، ولكنها عايدة، عايدة التي تعلق بها وبنى لها صورة مختلفة في حياته الذهنية، ها هي اليوم بين يديه، واليوم ليس كمثله يوم، تغيرت أشياء كثيرة، فالجسد الذي كان يراه أيقونّة مقدّسة، بات اليوم مثل أي شيء عادي، تلك الهالة ذهبت، النهدان متهدّلان عاجزان على النهوض دون حمالة، ثمة فقاعات دهنية منتشرة كتلال صـغيرة على نسـيج جسـمها، من اليدين حتى القدمين، من الجفنين حتى الرقبة، ومن الرقبة حتى السّرة، توقف عند السرة وسألها:

- أين الشامة؟

رنّ هاتفه الجوّال رنينًا غريبًا، كأنه طبل من طبول الحرب، لكنه انتظر منها الجواب، وكّرر سؤاله:

- أين الشامة؟

ضحكت وقالت له:

- أيّة شامة؟

- التي كانت تزّين بطنك!

نهضـــت واتجهت نحو اللوحة التي ترســـمها وبدأت تعدّل في بطن المرأة المرسومة، تخفي الشامة التي تزين بطنها وقالت:

- لقد تم التخلص منها ليزريًا. هي بقايا ذكرى خلعتها مع ما خلعته هناك.

رنّ هاتفه الجوّال مرة أخرى، توقفت عايدة عن طمس الشـامة وقالت له:

- هاتفك يرنّ ألا تردّ؟!

أمسك المستشار هاتفه ورأى اسم هدى التي قالت فور فتحه الهاتف:

- زكريا هل كنت نائمًا؟

- ليست مشكلة.

- آسفة، لم أتوقع ذلك، لا بد أن نلتقي؟

- أين؟

- قل لي أين أنت؟

- مكان قريب من تقسيم.

- هل يمكن أن تأتي إلى بازار اسطنبول

- سأحاول.

- يجب أن أعطيك الأمانة.

- حسنًا.

- جيد جدًا، نلتقي بعد ساعتين عند بوابة مسجد النور العثماني.

صمت الهاتف، وانتظر المستشار هنيهة، ثم فرك وجهه ودقق في الساعة، كانت تشير إلى الرابعة مساء. دهش للوقت الذي يمضي سريعًا جدًا في اسطنبول. حاول أن ينهض ويسترجع الحلم الذي انقلب إلى كابوس مفزع. ثم حدث نفسه " ماذا بعد يا تموز؟.

لم يكلم عايدة بل اتجه نحو الحمّام، وصب دوشًا سريعًا واستبدل بملابسه الداخلية ملابس أخرى جلبها معه في الحقيبة، ومشط شعره، ثم نظف أسنانه، كانت عايدة العارية منهمكة في لوحتها، ولأول مرة رأى آثار العمر عليها، كأنها جدار بيت تعرض للإهمال. جلس على حافة السرير، بدأ بلبس جوربيه، مراقبًا ظهرها والدهون المترسّبة حول خصرها مثل طحالب متطفلة على صخور بازلتية في شاطئ مهجور، ثم دقق في الإبطين، فوجدهما داكنين أكثر مما كان يظن، ثم هرب بنظره نحو اللوحة التي ترسمها، وقال لها:

- الخيال أجمل من الواقع.

توقفت عن متابعة الرسم، ثم قالت له:

- إلى أين؟

- مشوار قصير وأعود.

ضحكت وسألته:

- هل أطلب الشيخ؟

ابتسم المستشار ابتسامة باهتة وهو ينتعل الحذاء، دنت منه وهمست في أذنه:

- أعرف شغفك بالشامة، ولكني أزلتها بعد يوم من طلاقي منه.

- كان عليك إخباري

- لم يكن الوقت مناسبا؟

- ألهذا السبب رفضت الزواج؟

- لا. ثمة سبب آخر

- ما هو؟

- لا أستطيع البوح به؟

انتفض المستشار غاضبًا وقال لها:

- حين تستطيعين نلتقي.

ثم خرج دون أن يلتفت إليها.

المحطة الثامنة بازار اسطنبول

لم يعد البازار الكبير في اســطنبول المركز التجاري الأضـــخم في المدينة، لكنه ما زال أكبر ســـوق مســـقوف في العالم، كان محمد الفاتح قد افتتحه قبل خمســـة قرون ونصـــف، يحتوي البازار الكبير على أكثر من ستين شـارعًا وزقاقًا وحوالي أربعة ألاف متجر، وهو كغيره من الأسواق العربية المسقوفة والمساجد الكبيرة التي تحيط بها الأسواق والحمامات من تصميم الدولة العثمانية، لذا تجد الشبه كبيرًا بين المدن العربية التي كانت خاضـــعة للحكم العثماني، و يمتاز البازار الكبير بكثرة أبوابه، و لعل أســـهل الأبواب هو الباب القريب من مسجد النور العثماني، ومن السهل العثور عليه إن كنت تعرف اللغة التركية، وقبل وصـــوله إلى المكان المحدّد وقف عند إحدى محلات الشاورما وتناول وجبة سريعة، ثم تابع سيره.

كان البازار يستعد للإغلاق حين وصل المستشار إلى البوابة المتفق عليها. وكانت الساعة تشير إلى السادسة –البازار يفتح أبوابه من الساعة التاسعة حتى السابعة– لكن اسطنبول لا تنام، وخصوصًا في مثل هذه الأيام، ولم يطل انتظاره حتى لمح مرافق هدى الذي صادفه في مطار أتاتورك صباح اليوم يقترب منه ويقول له بلهجة دمشقية: "المدام تنتظرك."

كانت الخطوات ســـريعة، وكان الجهد والإعياء قد تمكنا منه، دخلا البازار الذي لم يكن يختلف بأزقته ودكاكينه عن ســوق حلب ســوى الحجم وعدد المحلات، ومقهى مميّز يســـمى مقهى الشـــرق، كانت

هدى جالسة هناك قرب النافذة تحتسي القهوة التركية وتراقب زوّار البازار. وابتسمت حين لمحته ونهضت ترحب به قائلة بعد أن جلسا:

- لم تتغيّر فعلًا، أنت كما أنت، وكأني ودّعتك البارحة بعد اغتيال (العرصات) والدي. يوم الحساب غدا قريبًا.

تفاجأ المستشار من لهجة ولغة هدى الجديدة. كانت مختلفة هذه المرة، ودقّق فيها ليتأكد إن كانت هي وقال لها:

- هناك تغيّر في لغتك!

ضحكت ضحكة قصيرة وقالت له:

- كلّ الدنيا تغيّرت إلا العاشج.

ثم صمتت كأنها تراجع ذاكرتها وقالت له:

- لقد اغتالوه. تعرف، أصعب شيء في الديكتاتورية أن يحملوك على أن تقول ما لا تؤمن به. وهو ما رفضه والدي.

ثم بدأت تحدثه عن تلك المرحلة، وكيف بدأت مع البيان الشهير في العشرين من أيلول عام ٢٠٠٠ حيث وقع تسعة وتسعون مثقفًا مختلفو المشارب الفكرية والأيديولوجية، ومن مرجعياتٍ سياسية وحزبية متعددة أو مستقلة، منهم فنّانون وكتاب وسياسيون ومحامون، طالبوا الوريث بأولوية الإصلاح السياسي وأنه مفتاح لحل مشكلات

أخرى، وأن كل بيت في سوريا تحوّل إلى خلية اجتماعية وسياسية وثقافية، وكان بيتهم كذلك، وكيف أن والدها الأستاذ كان غير مصدّق للخطاب الإصلاحي واعتبره خدعة ٩٩٪ فلا يمكن لنظام ديكتاتوري أن يؤمن بعودة الديمقراطية التي تعني نهايته. وحكت كيف شارك والدها في صياغة الوثيقة الأساسية للجان الأحياء المدنية التي صدرت بداية عام ٢٠٠١ بعد تجدد لقاءات كثيرة في بيوت عديدة ومنها بيتهم. وكانت تحضر قسمًا منها وكيف كان والدها يحذر رفاقه المخدوعين باستحالة استئناف الحالة الديمقراطية التي أوقفت أواخر الخمسينات، وأن ثقافة الرعب باتت متأصلة لعدم انتاج الجديد، ولا حلّ إلا بإحياء المجتمع المدني عبر الشباب، فالتغيير لا يمكن إلا بواسطتهم. وأنه انسحب من كل المشاركات لأنه وجدها عبثية، ولكنه لا يتوانى عن تقديم النصح والمشاركة في الصياغة والمناسبات، ثم استرسلت قائلة:

- حين بدأت بزيارتنا حرص والدي على عدم زجك معنا، كان يقول" نحتاج قضاةً شبابًا نزهاء، وسيتعلم لاحقًا ويكتسب خبرةً" ولقد اغتالوه لأنه كان يشكّل تهديدًا حقيقيًا لهم.

كان المستشار متفاجئًا من لغتها القوية، بعد ذلك حدثته باقتضاب عن زوجها الدبلوماسي الذي تركته لأنه فضل البقاء مع حاكم البلاد، وكيف عادت لتُسهم في تحرير بلادها، وكيف تساعد أبناء شعبها المقهورين في الداخل عبر شبكة منظمات تدعمها وتعمل

على تـأمين الدّعم لهـا. وأنهـا انجبـت ولـدين وهمـا الآن في أمريكـا أحدهما يدرس الطب والآخر الهندسة المعلوماتية.

قال لها:

- لم أشعر يومًا أنك مهّتمة بالسياسة؟

ابتسمت وقالت له:

- القضـية لم تعد حكرًا على السـياسـيين، إنها مسـألة بلد، وانتقام من عصابة قضت على كل نفس وقفت ضدّها. تصور لقد استولوا على بيتنا أيضًـا، ونهبوا ما فيه، كان والدي حريصًـا على حفظ بالوثائق المهمة هنا في اسطنبول تخيل!

نظرت إلى ساعتها ثم نهضت قائلة:

- هيا سأعرّفك على شيخ وقور يعرف جدّك.

المحطة التاسعة بيت الشيخ الوقور

تتزاحم الأولويات أحيانًا فتضـــع المرء تحت وطأة الحيرة، فيصـــبح عاجزًا عن اتخاذ القرار، ويدع الأقدار تفعل فعلها. يحدث ذلك كثيرًا في لحظات الموت، لحظات فقد عزيز أو حدوث حادث، لا تتوقع كيف وقعت الواقعة، فســاعة القدر تُعمي البصــر و ُتبطل الحذر، مهما أوتيت من فطنة وعزيمة وقوة.

وهذا ما حدث مع المستشار زكريا، حين خرج من عينتاب على أمل لقاء عايدة، لكنه بدل أن ينعم في الفراش معها كزوجين بعد معاناة وتخيلات لا حصــر لها للقاء المنتظر، ينتهي كل ذلك في ســاعة! وها هو نحو هدف آخر لا يعرف أين ســيقوده؟ ومع من؟ مع هدى وليس عايدة!

وقفا أمام بيتٍ بجوار البازار الكبير وقالت له:

- ســتدخل بمفردك لديّ عملٌ بســيط وســنلتقي هنا حين تنتهي من مقابلته وتستلم أمانتك منه. لا تقلق هو يعرف من أنت وستفهم منه بعض الأشياء.

كان البيت يعدّ زاويةً وغرفًا للمريدين كتب على بابه الخارجي باللغة عربية" بســم الله الرحمن الرحيم، افتتح هذا الســبيل العبد الفقير لله الراجي عفو ربه وغفرانه إلى الله تعالى زكريا بن يحيى الداغســتاني إمام الطريقة الربانية يوم الجمعة العاشر من تموز عام ١٩٢٥.

بداخل الزاوية التي هي مسجد في الوقت ذاته، شعر المستشار بحضـــور روحيّ عجيب في هذا المكان لا حرارة ولا رطوبة وإنما برودة كأنه على سفح جبل شاهق، وجلس بالقرب من الشيخ الذي تناوب المريدون على تقبيل يديه ثم الجلوس على الأرائك.

- طلب الشيخ الشاي ثم قال للمستشار:

مولانا الشيخ زكريا أعلى الله درجاته دائمًا أقام هذا الصرح أيام منع الزوايا والتكايا والمســاجد. وفرشــها هكذا على الطراز الغربي وقال لنا: " المهم النيّات".

رشف الشيخ من شايه ثم تابع:

- كان الله في عونكم، لا يقاس ما تشهدون بما شهدناه. ولكن لا تقلق، رغم كل ما حدث في بلادنا حافظت التكايا بفضــل الله وعنايته عبر جمعيات ومؤسسات على نشاطها في الارتقاء بالإنسان.

ثم أشار بعكازه على رفوف المكتبة التي تزين جدران الزاوية وقال:

- وهذه المجلات والكتب التي تراها قليلة العدد، كان لها دورٌ كبير في محاربة التيار الإلحادي وكانت خير سلاح نتسّلح به ونعلّم أولادنا، ستجد فيها الأدب والفلسفة والحديث والتفسير و هي متنوعة منها سياسية ومنها تربوية ومنها أخلاقية ومنها تهتم بالتصــوف ولكن

هناك مجلة مهمة اســـمها مجلة المحبين هذه المجلة كانت تتحدث عن كل شيء إلا السياسة، وكانت منبرًا ومنارًا للكثيرين.

ثم رحّب مجدّدًا بالمستشار وقال:

- هذه الأيام صـعبةٌ أيضًـا، لأنّ الخفافيش تحاول أن تقوم بانقلابٍ وقد بدأت تعود تركيا لهويّتها وحقيقتها. هناك هويتان عليا وســـفلى، السفلى هي تلك التي تميزنا أنت سوري وأنا تركي ومولانا داغستاني ولكن الذي يجمعنا هو الهويّـة العليا والحمد لله على هذه الهويـة الإنسانية، لذلك مولانا يقول: "الإنسان ثم الإنسان"، وإن التكايا ليست للمظاهر والتبرج، بل هي مكان للتعبد والتفكير والرياضـــة والتهذيب والتطبيب.

كان المريدون جالسـين ورؤوسـهم مطرقة، يحتسـون الشـاي ببطء ويصـغون لشـيخهم الذي لاحظ تفقّد المسـتشـار هاتفه، ابتسـم وقال للمستشار:

- يا حفيد صـاحبنا العاشـق، هنا الهاتف لا يعمل، جدران البيت تعزلنا عن كل شـيء يعكّر علينا خلوتنا، وطعامنا عضـويّ لا أثر للكيمياء فيه، تماما مثل الزهور التي تنبت عندكم. سـتكون في انتظارك حين ننهي حديثنا.

ثم التفت نحو مريديه وقال لهم:

- هو حفيد حبيب من أحبائنا، وصـــديق لنا، زرناه في حلب، ومولانا قال لنا بأنّ لنا حبيبًا يجب دلالته على الطريق، وذهبنا إلى حلب، فوجدناه قريبًا منها، كان شـــاردًا تائهًا، وبفضـــل الله ثم مولانا تمّت إعادته إلى أصله، وبات خليفة لشيخنا، واستشهد شماليّ سوريا حين كان يدعو الناس لترك الدّخان والمنكر، يوم اســتشــهاده كان مولانا يحتضـر، سـمعناه يقول " اثبت يا ابراهيم سـنكون معا بإذن الله عند الحبيب".

صمت هنيهةً ثم قال للمستشار:

- هيّا ندخل على مولانا نقرأ على روحه الفاتحة؛ لقد تمّ دفنه هنا سرًّا.

انتقل الشيخ مع المستشار وبعض المريدين إلى غرفة داخلية واسعة يتوسطها ضريح. وبعد قراءة الفاتحة قال الشيخ للمستشار:

- يوجد هناك أثر لجدّك.

ثم أشـــار بعكازه إلى زاوية الغرفة حيث تســـتقر عكازة من المرمر. وقال للمستشار:

- يا حفيد العاشـــق كان جدّك حكيمًا متكلّمًا وماهرًا في لغة الحجارة. وقد تتلمذ على يده نحّات فرنســي، وجاء مرّة لزيارتنا يبحث عنه بعد أن فُقد. سمعنا أنهم قضوا عليه، وأعتقد بأنه عرف قاتل جدّك.

صمت الشيخ حين شعر بأنّ حجم المعلومات أثقل من أن يتحمّلها المستشار الذي كاد يسقط أرضًا من هول المفاجأة. دنا منه ووضع يده على كتفه وقال:

- طريقتنا تسير مع المريد خمسين خطوة لكي يمشي معها خطوة. وقد كان جدّك يحلم أن تكون قاضيًا تحكم بالعدل وتُسهم في ردّ المظالم، ولكن يبدو أنك انشغلت كما انشغل أجدادك بالعشق الوهميّ. وقد حان الوقت لأن تسلك معنا طريق الحق. والآن! لك أمانة عندنا، ولكن اولًا عليك أن تغتسل مرة أخرى لتزيل عنك ما بقي من آثار معصية لم تكن تتوقعها ولم تتجنّبها.

كانت صدمة المستشار كبيرة، تشوش عليه كل شيء، آلاف الخواطر تجتاح قلبه كفيضان نهر مفاجئ.

لحق بالمريد المكلف في رعايته حيث أدخل حمّامًا على الطراز القديم، فيها سرير حديدي وأغطية بيضاء عليها زهور البنفسج. قال له المريد:

- داخل الخزانة ملابس داخلية نظيفة يمكنك اختيار ما يناسبك.

حين بدأ المستشار بخلع ملابسه شعر براحة عجيبة، وكأنه يتخلص من أثقال تكبّله، فالخلع- غير النزع- الخلع يأتي عن سبق إصرار وقناعة، ولا إكراه فيه، بينما النزع إجبار وإكراه، ربما أبلغ مثال للخلع والنزع هي حكاية ذلك الأعرابيّ الذي تحدّت الشمس والريح بعضهما

على أن يستغني عن عباءته، ولم تستطع الريح رغم قوتها، بينما الشمس نجحت بسهولة، فعل الريح كان عملية (نزع)، بينما كانت عملية الشمس خلعًا. وحين أصبح المستشار عاريًا وقف أمام مرآة الحمام الطويلة، تفحص جسده متذكّرًا ما قاله له الأستاذ حول فكرة الخلع والنزع الذي لخصها له كالآتي:" حضور الخلع دينيًا وفلسفيًا وفنيًا وعلميًا بقوة في كل المجتمعات، ويُحث عليه، وبالمقابل يُطلب تجنب النزع. في الدين مثلا، يُطلب من الإنسان خلع المعاملات الخاطئة وارتداء المعاملات الصحيحة. كخلع فكرة الجشع مقابل التضحية والإيثار. وفي الفلسفة أيضًا–وهي غير الدين– يُطلب منك خلع التصورات الخاطأ عن حالة ما قبل أن يلبسك التصور الذي تراه حقيقيا. وفي الفن عمومًا، يُطلب منك خلع الأقنعة عن حواسك لتكتشف بعقلك حقيقة الشيء. لهذا ظهرت المدارس المتعددة والمذاهب المتنوعة لتقول لك طريقي هو الذي يدلك على الطاحون. أما في السياسة فالأمر مختلف حيث النزع بقوة ولكن بمظهر الخلع. صفة الرئيس المخلوع لا تعني أنه خلع نفسه بنفسه، وإنما أُجبر على ذلك، هكذا نزع الضباط الأحرار الملك من فاروق وهكذا نزع الإنجليز الإمارة من الشريف حسين، وتاريخيًا ربما قصة خلع أبي موسى الأشعري صاحبه وتثبيت عمرو بن العاص صاحبه بعد أن اتفقا على خلع صاحبيهما هي أول حادثة خلع حقيقي سياسيًا." كان ذلك بمناسبة النقاش مع أستاذه عن الخلع واختلافه عن الطلاق، وكيف يمكن للمرأة أن تخلع زوجها وتجرّد الزوج المطّلق من حق

ردها إليه، وكيف تدفع ثمن خلعها له. فلا شـيء بدون ثمن. والفرق استحقاق المطلوب للثمن.

وحين بدأ يسـكب من الماء الحار على جسـمه، شـعر كأنه سـفينة مثقوبة على وشـك الغرق تحاول البقاء على سـطح الحياة، وكان له في كل قطرة بلسمًا شافيًا لجرح ملتهب.

وبعد أن انتهى من الاغتسال، شعر براحة عجيبة، وكانت الملابس الداخلية التي أخرجها من الصـــندوق كالمرهم خدّرت جراحه، وحين نظر في المرآة مرة أخرى، وجد شخصًا مختلفًا لا يكاد يعرفه. وسأل نفســه " هل كان الثمن الذي قبضــه من عايدة يســتحق ما تحمّله طوال هذه الســـنوات؟ وهل الطريقة التي قبض فيها الثمن كانت ضرورية للتخلص من وهم اسمه عايدة؟ وهل الدافع هو التخلص أم الحبّ؟ وهل كان صـــادقًا برغبته في الزواج بها؟ أم أنه كان يريد معرفة ذلك السر الذي جعلها ترفض الزواج به؟

توقّف عن طرح الأسـئلة حين سـمع طرق باب الحمام، وسـمع من المريد بأن الشـيخ ينتظره، فأكمل ارتداء ملابسـه وتوجه نحو الشـيخ الذي ابتسم حين رأى المستشار وقال:

- كيف كان اغتسالك؟
- الحمد لله.

- لم يكن اغتسالًا بل تطهيرًا.

ثم وجّه الشيخ حديثه للجميع:

- ماء التوبة ينظّف مسامات الروح، ويرفعها لتلتقي الأرواح الأخرى، إنه سرّ من الأسرار، ومهمّتنا تهذيب النفس وقتل طفل النفس المذمومة. فقد تشغلنا الحياة الفانية عن واجبنا الحقيقي، وتخدعنا بقطع السكر ولكنها في الحقيقة تقضي علينا. ومن لطف الله ورعايته أن يجعلنا نتعاون على تجاوز هذه المغريات.

ثم نهض الشيخ مستندًا على عكازه، واتجه نحو صندوق مخفيّ في ركن الزاوية، وأخرج منه ظرفًا ورقيًا فيه مجموعة من الأوراق، ناوله المستشار قائلًا:

- إنها البداية، والقادم أصعب. علينا التسلح. وخير السلاح الإيمان، وعليك أن تستعدّ فأمامك امتحان كبير. ويجب أن تعرف طريقك. ولقد قضيت مدّة طويلةً وراء سرابٍ وآن الأوان لتكتشف السّراب. كان جدّك نظيف القلب. شغله الشيطان برهة من عمره ولكنه انتصر عليه، وكان بحاجة لنور ينير دربه. وكانت طريقتنا الربانية المصابيح التي أنارت طريقه فالشياطين تخاف من النور، وتهرب منه.

استجمع المستشار قوته وقال:

- لا أفهم ما يجري لي، لأنني أحتاج بعض الوقت.

هزّ الشيخ رأسه، وقال هامسًا:

- الخلع سياسيًا ضرورة أساسية في بناء الدولة المنشودة. وهو أيضًا ضرورية حتميّة للمجتمعات، ودونه لن تستمرّ الحياة ولن تتطوّر. لأنّ النزع يعني الموت، وهذا ما يفسّر الكمّ الهائل من القتل في بلادكم.

تردد المستشار في تقبيل يد الشيخ الذي مدّ يده فصافحه زكريا ثم خرج.

فوجد مرافق هدى ينتظره وقاده نحو سيّارة سوداء وضخمة ولكنه لم يميّز طرازها، وفتح له الباب الخلفيّ فاستقبلته هدى بابتسامة ثم صعد المرافق في المقعد الأمامي وأعطى إشارة للسائق بالتحرك.

سألته هدى:

- يبدو مختلفًا؟

- نعم

تنّهدت ثم قالت:

- من كان يظن أو يتخيل أن والدي احتفظ بالأشياء الأكثر سرّية في اسطنبول عند هؤلاء وليس في فرنسا؟ فعلًا إنها ليست وريثة آخر

دولة تحتفظ بحقوق الناس في سوريا فحسب وإنما كلّ البلاد العربية، تخيل اليوم الليبيون ايضًا يلجؤون لـ وثائقها لفض نزاعاتهم.

سكتت هدى واخذت تراقب المستشار ثم قالت:

- تبدو متعبًا.
- قليلًا.
- حين نصل البوسفور ستتحسن.
- آمل ذلك.

سنذهبُ إلى مطعم ذي إطلالة ساحرة، وستستمتع برؤية مضيق البوسفور وجسوره المميزة ليلًا، هذا المطعم يتميّز بتنوع أطباقه، من حساء اللحم إلى المقّبلات والسمك الصغير المميز المعروف بالهمسي وشرائح سمك اسقوربيت البحري.

لم يجب المستشار، فقد كان يشعر بدوار بسيط، وكان يسأل نفسه " ماذا أيضًا يا تموز؟"

المحطة العاشرة مضيق البوسفور

كان في المطعم الفاخر القريب من جسر البوسفور لفيفٌ من كبار السن، وكان يجمعهم نقاش حادّ حين دخلت هدى برفقة المستشار ومرافقها، قطعوا حديثهم ونهضوا يرحّبون بهم، عرف المستشار من بينهم الذين كانوا من مرتادي منزل الأستاذ ولكنهم كانوا أكثر شبابا وقتها. أما الآن فيبدو عليهم الكبر، ثم جلسوا وتابع كبيرهم الحديث:

- في الغرب هناك تحرر من الخوف، يمكنك أن تقف أمام المسؤول وتناقشه وتنتقده دون أن تشعر بأن لسانك أو أيُّ عضو من أعضائك سيُبتر. وأهم ما حدث في بلادنا اليوم هو كسر هذا الحاجز، حاجز الرعب، ولا بد لشعبنا أن ينتصر.

عقبّ شخص سمين يبدو في الخمسين من عمره، لم يره المستشار سابقًا:

- أستاذنا، لكلّ بلد ظروفه، نحن نعيش اليوم مرحلة جديدة، داعش وأخواتها قضت على الثورة ومنعت الغرب من مساندتنا.

قال كبيرهم وكان لا يقل سمنة عن زميله:

- لا لا! المشكلة بدأت منذ اللحظة التي بات الريف والإسلاميون متحكمين فيها.

اندفع مسنّ آخر تذكّره المستشار:

- لست معك في هذا الطرح وإن كنت أتفهّم مقصدك؛ عليك أن تتذكر بأن المجتمع السوري ريفيّ بالأصل ومحافظ.

تدخلت هدى وقد شعرت بارتفاع وتيرة النقاش قائلة:

- أجمل شيء في هذا المطعم أنه يقدم وجبة فيليه شاتو مميزة لم أذق مثلها في فرنسا.

كانت أطباق الطعام تأتي متتابعة والمجموعة منشـــغلة، وكانت المقّبلات واللحوم الباردة وسلطات الموسم وطبق من السمك الصغير المعروف باسم الهمسي او السردين، وعاد الحديث عن سوريا والثورة وعن الأجناد، وعن الجماعات المتطرفة وأنّ من بيدهم الأمر قليلو الثقافة والخبرة، ثم قال كبيرهم وكأنه يحسم القضية:

- الثورة فشلت حين تأسلمت.

قال آخر:

- إنهم عيال.

قال كبيرهم ملتفتًا نحو المستشار:

- لا تزعل مني يا زكريا، لكنها حقيقةٌ، ابنُ الريف هو ابن الريف. الدولة تحتاج إلى فكر المدينة.

قاطعه رجل أسمر حادّ الطبع في الأربعين من عمره:

- وكيف تريد أن تقوم الثورة؟ كلّ الثورات تبدأ من الريف، كيف بدأت الثورة السورية ضدّ المستعمر الفرنسي؟

أشار كبيرهم بيده أن يصمت والتفت نحو هدى:

- ما آخر الأخبار؟ هل تغيّر موقف فرنسا؟

توقفت عن مضغ شريحة السمك وقالت:

- فرنسا مع الثورة. وليس مع الذين يتقاتلون اليوم.

ضرب الرجل الأسمر الطاولة براحة يده اليسرى وقال:

- لابدّ من حركة، روسيا تأخذ كلّ شيء.

والتفت كبيرهم نحو المستشار قائلًا:

- قاضينا لا يأكل.

ابتسم المستشار وقال:

- لقد تناولت لتويّ.

ضحك كبيرهم وقال:

- متى لتويّ؟!.. أقصر مشوار في اسطنبول ساعتان لا يترك لقمة في الجوف.

ثم وجّه حديثه لهدى قائلًا:

- هو كما هو يا هدى منذ عرفته في دمشق.

ثم أدار وجهه نحو المستشار مرةً أخرى:

- زكريا لم تقل رأيك؟

تحسّس المستشار الظرف الذي يحوي الأمانة وقال:

- نعم لثقافة الخلع سياسيًا، ولا لعملية النزع مهما كان مزركشًا.

ضحك الجميع وشاركهم المستشار مجاملة، ثم نظر إلى هدى وكأنه يسألها بعينيه لماذا هو هنا؟ ثم قال:

- أعتذر منكم جميعًا، لديّ فضول لمعرفة بعض الأوراق.

صمت الجميع والتفتوا نحو هدى التي قالت:

- يمكنك الجلوس منفردًا، سننضم إليك بعد الانتهاء من طعامنا ونشرب الشاي معًا.

نهض المستشار وجلس إلى طاولة بعيدة عنهم، كانت الطاولة مخصّصة لشخصين لا أكثر، وكانت تطل مباشرة على جسر البوسفور الذي أسهمت إضاءته الليلية الملونة في إمتاع الناظرين واكتملت بعروضها الليزرية الضوئية التي تجري كلّ يوم. ولكن

المستشار كان متشوقًا لمعرفة الأمانة.

فتح الظرف، فوجد داخله بضـــع أوراق منها قديمة كتبت باللغة الفرنسـية، وأخرى باللغة العربية، ترك النسـخة الفرنسـية، ثم بدأ يقرأ ورقة قصيرة كانت بخط الأستاذ الذي يعرفه كتب له فيها:

- زكريا، تعرف كم أُعزّك، وسـعدت كثيرًا لأنك سـتصـبح قاضـيًا. كان هذا حُلمُ والدك الذي يعرف الحقيقة، ويعرف سّـر اختفاء جدّك، ففي ريفكم الثأر عادة متأصـلة، وكم من عزيز فقدناه بسـبب هذه العادة الصـعبة المقيتة. ولكن محاربة الأفراد شـيء والدولة شـيء آخر، فقد كان حريصًـا على عدم إعلامك بالأمر إلا بعد أن تصـبح قاضـيًا متمكنًا، وكنت أتمنى أن أقدم لك ذلك بيدي، ولكني أشـــعر بأنني اليوم مهدّد... فحاكم البلد لا يقبل إلا الخانعين له. لذلك ســـأحتفظ بهذا خارج سوريا وستصلك يوم تكون بلادنا قادرة على المحاسبة. ويجب أن تعلم بأن المسؤول عن اختفاء جدك أصبح أيضًا في دار الحق، وأنا واثق بأنك قادر على أن تكون قاضـــيًا محايدًا، وليكن درسـي الأخير لك هو: "حلّل كلّ شـيء بحيادٍ وحتى إن حكمت وفق قناعتك. المهم أن تحلّل القضية بحيادٍ".

رفع المسـتشـار رأسـه، ووجد المجموعة منهمكة في الحديث ورأى هدى تختلس النظر إليه كأنها تنتظر الانتهاء من القراءة، وبعد أن شرب من عصير الرمان الذي قدّمه له النادل عاد إلى قراءة الأوراق

المرتبة بعناية، فمن الواضـــح أنها ترجمة حرفية لنقل المعلومات بأمانة أكثر، وهي عبارة عن ست قصـاصـات باللغة الفرنسية ومع كل قصاصة ورقة مرفقة مترجمة إلى اللغة العربية.

القصاصة الأولى

أدين بصـــقل موهبتي لرجل يقيم قريبًا من مطار حلب، في قرية كانت تشـتهر بالزهور والنباتات العطرية التي تسـتخدمها مصـانعنا لإنتاج العطور، ذلك الرجل يلقب بالعاشـــج، وهو بحق عاشـــق، تعلمت منه كيف أتعامل مع أصـناف الحجر كافة، وكأنّه من رجال النبي سليمان الذي أتقن سر التعامل مع الحجر بأنواعه، ناري مثل الغرانيت والبازلت أو مائي كالجيري، علمني كيف يتم عمل التماثيل والأعمدة من الغرانيت وكيف يمكن أن تجعل من البازلت لوحة تعبّر عن الحزن، وكل هذا في كفّة، وتعامله مع الحجر الكلســي في كفّة أخرى، وكأنّ الأحياء المائية من مرجان ومنخريات ورخويات كائناتٌ حيّة يعرف كيف يحاورها لتتشــكل بين يديه كما يريد، و لو أن أحد منكم شاهد كيف يركع على ركبتيه ليلمس حجرًا قبل معالجته لوجده كعاشق يلامس محبوبته، ولم استطع أن أتقن ذلك إلا بعد مدة حين فهمت مقولته عليك أن تذوقها لا تتعرف عليها فقط ".

عدت بعد سنوات لزيارته والتعلم منه المزيد. لكنني اكتشفت أنه هاجر بعد أن تعلق بمجموعة متصوفة مرت به. ترك كل شيء ورحل معهم. وكان منظر القرية حزينًا، وكان القطن كاسحًا وكأنه حوت ابتلع كلّ زهور المنطقة. فسوريا في مطلع العقد السادس من القرن العشرين لم تعد سوريا التي أعرف.

القصاصة الثانية

كنت بحاجة لرؤيته، ولكي أكون صادقًا مع نفسي كنت بحاجة لخبرته في المعضلة التي تقف أمام إنجاز عملي، هو وحده من يفهم سر الحجارة، وقد كان عليّ السؤال عن هذه المجموعة التي عرفت فيما بعد بأنها تنتمي لطريقة صوفية تدعى الربانية، وشيخها في اسطنبول، ساعدني تاجر تركي صديق تاجر تحف وشرقيات على الاستدلال عليهم، إنهم مجموعة صغيرة ولكنها نشطة وقوية، شيخهم من داغستان، ولهم تكية في منطقة الفاتح قرب بازار اسطنبول، وقد قابلت شيخهم هناك، كان في الثمانين من عمره إلا أنّه قويّ البنية صلبٌ كأنه ابن ستيّن ربيعًا يملك جاذبية غريبة، وأدركت سبب انجذاب إبراهيم لهم. كانت زاويتهم سرية، فقد كان عام ١٩٢٥ عامًا عصيبًا عليهم، فقد صدرت قرارات بإغلاق جميع التكايا والزوايا سواء أكانت ملكًا أو وقفًا. وألغى النظام الحاكم كل أنواع الطرق الصوفية، والملابس الإسلامية، ومنع زيارة القبور والمزارات، ولكن الشعب هبّ، ولم يصمت، فهناك من اختار

الاحتجاج مثل جماعة الطريقة التيجانية الذين حطّموا صور وهياكل الحاكم، وهناك من تمسك بالسلاح مثل جماعة النقشبندية بقيادة الشيخ سعيد بيران رحمه الله، وكان الشيخ الداغستاني معهم في البداية، وكان قد حضر في خريف عام ١٩٢٤ مؤتمرًا في حلب إلا إنه رفض الطريقة العنيفة، لأن الجنود هم جنود الوطن، وأسس طريقته الربانية ولكنه كان يترحم على الشيخ سعيد بيران، وكان يراه حرًا تقيًا ولكن تمّ تشويه سمعته بنعته بالانفصالي وما هو بذلك، وأنه استشهد مع سبعة وأربعين رفيقًا له، بعد تدمير حوالي ألف بيت وطمس أكثر من مئتي قرية. وهناك رأيت العكازة الرائعة من المرمر. وقلت لهم بأنني بحاجة إليه، فقالوا: إنه بقي في حلب، واختار الدعوة وسلوك الطريق، وسيبدأ مع كل مكان شهد له بالعصيان والضلال. وسمعت من أحد المريدين نصيحة طلب فيها البحث عن راقصة تدعى بالعضاضة، لأن إبراهيم العاشق لمّح بأنه سيدعوها إلى طريق الحق وهي أول خطوة له. لذلك قرّرت العودة لحلب والبحث عنها.

القصاصة الثالثة

أتعلم يا صديقي الأستاذ أني حين عدت إلى سوريا، سألتك عن العضاضة، وكنت أظنها تعضّ، وذات فم كبير، ولا تزال ضحكتك المجللة تتجول في دهاليز أذني اليمنى التي ضعفت قليلًا، بعد أن أخبرتني بأنها انتقلت إلى دمشق وقد باتت عظيمة الشأن، وأن

العضـاضــة تنتمي لفرع من الغجر المعروفين بالحجيات، وشـرحت لي بأن الغجر في ســوريا يصــنفون مهنيًا وليس عرقيًا. يقســمون حســـب المهنة التي يعتاشـــون منها، فالعبدال هم عازفو المزمار وقارعو الطبول في الأفراح، والقرباط وهي التسـمية الأشـهر لهم في سـوريا يختصـون بالتسـول وتلبيس الأسـنان وتبييض الأواني، وأما الحجيات فهي الفئة التي تعتمد على البهجة. والعضـــاضـــة تنتمي لهؤلاء الحجيات. بيوتهم ملاه متنقلة. عتادها خيمة تســع بضـــعة رجال، يقدّمن للزبون الطعام والشراب، ثم ترقص النساء بينما يعزف الرجال على الطنبور أو الربابة. لذلك كان شـــوقي لرؤيتها – رغم إصــرارك ألا أفعل– لا يقل توقًا عن معرفة أخبار إبراهيم العاشــج. وحين رأيتها دهشت. لأنك حين وصفت لي تعلق إبراهيم بها، ظننتها تشبه جواري آشور بانيبال كما تخيلها ورسمها رسامنا الرومانسي العظيم يوجين دي لا كروا المعروفة باسم وفاة ساردانابلوس، تعرف تلك اللوحة التي طالما دار حولها حوار بيننا، وكيف قلت لي بأن الشــرق لم يكن في مثل هذه الفوضـــى كما يظهر في اللوحة التي تصـور حالة الملك آشـور وهو يراقب بهدوء قتل جواريه وأحصـنته وعبيده قبل وفاته مع تناثر الذهب والكنوز في كل مكان، وقلت لي بأنه لا مكان للانتحار في ثقافة الشـرق الأدنى، وصـورة ذلك العبد الذي يقتل نفسه تفضح حقيقة التخيل القائم وفق تصور وخيال واهم لا واقع.

كانت العضّـاضـة حين رأيتها أول مرة بدينة، وذات صـوت أجشّ، ويبدو أنها أدركت دهشتي فقالت لي بلكنة فرنسية غريبة:

- خيّبت ظنّك. كنت تظنّ أني أجمل.

دُهشت جدًا من معرفتها اللغة الفرنسية، ويبدو أنها قرأت ذلك أيضًـا فأخبرتني بأنّ والدتها كانت تعشـق جنديًا فرنسـيًا علّمها لغته ولكن فرنسـيتها كانت غجرية. وتختلط مفرداتها الفرنسـية بلغتها الممزوجة بلغات المنطقة الهندية والفارسـية والعربية والكردية والتركية، وكانت معظم جملها منسوخة من لغة المواخير والحانات. وحين استفسرت عن سبب طلبي رؤيتها قلت لها:

- يا مدام عضاضة أبحث عن إبراهيم العاشج.

ضحكت ضحكة هزت أركان البيت، وقالت:

- إنه رجل لم اشـهد له مثيلًا، وهو الوحيد الذي عضـني. وأنا التي تعضّ الرجال.

نهضـت من مجلسـها ورحبت بي ترحيبًا مختلفًا ثم قادتني إلى غرفة واسـعة في بيتها منصـوب فيها خيمةٌ كبيرةٌ، تحوي بسـاطًا وفراشًـا صـغيرًا وأغطيةً وأدوات طعامٍ، وكأننا داخل خيمة على أطراف المدينة، ثم أخبرتني بأنهم مجتمع لا يتأثر بالترف وأنهم يحافظون على طباعهم وعاداتهم. ثم جلسـنا بينما صـبيها بدأ يعزف على آلة

البزق عزفًا حزينًا وبدأت هي تحدثني عن تلك الليلة التي التقته أول مرة:

- كانت ليلة غريبة، لم أكن أجمل بنات قومي. ولكن كنت أقدرهن على قراءة الرجل، أعرف ما يحب وما يكره. أيّة حركة تستهويه. وأيّ نوعٍ من الطعام يفضّل؛ فالمرأة التي تسيطر على الرجل كعازفة القانون أو البزق تعرف وظيفة كلّ وتر والأهمّ أنها تتقن فنّ استخدام ذلك الوتر.

ثم أشارت إلى العازف أن يغير المعزوفة، وبدأت أسمع عزفًا جميلًا قريبًا جدًا من لحنٍ فرنسي أحبه فأدركت خطورتها وسحرها وتابعت قائلة:

- حين تدخل الخمرة جوف شاربها تسحره.. تجعل مَنْ أمامه صورةً ينسجها خياله كما يريد ويشتهي. لم يكن هو محبًا للخمر. لكنه كان صادق الإحساس، وكان فيه شيء عميق، حين يحدثك؛ تظنه عجانًا يشكلّك كما يشاء. وحده كان كافيًا ليبهجني. وأدركتُ نقطة بهجته أو هكذا ظننت فكان لا يتركني، ولكن في الحقيقة كنت أنا التي لا أستطيع تركه. لقد أحببته ونحن الحجيات كلّ شيء لهنّ مباح إلا الزواج من خارج الملّة، لذلك لا يُسمح لنا بالحبّ، ولكني أحببته. لأننا متشابهان، والحبّ في دمنا وراثةٌ، أمي أحبّت جنديًا فرنسيًا ومنه تعلمت هذه الأغنية التي تسمع لحنها الآن، ولكنها لم تتزوجه، سُمح لها أن تحبه ولم يسُمح لي مع برهو العاشج.

وحين قلت لها بأنّه اختفى، وتوقعت زيارتها، قالت:

- نعم لقد جاء لزيارتي، وكنت أستعد لتصوير أول فيلم لي تحدثنا طويلًا. كان كما هو لم يتغير.

ثم اقتحم الخيمة رجل غريب الأطوار، نظراته مزعجة، ولكنه كان يتصنع بأنه أحد رجالها. نهضت معتذرة ووعدتني أن تخبرني إن علمت شيئًا.

القصاصة الرابعة

تعرف عزيزي إصراري، وحين خرجت من عندها، لم أودّعها، قلت لها فقط "سنلتقي"، وهذا ما حدث، عدت بعد يومين، فاستقبلتني بفتور هذه المرة، ولكن الرجل الغريب الأطوار عرض عليها خدماته مقابل مبلغ مادي، ثم تكلم معها على انفراد عشرة دقائق وعاد مبتسمًا، ثم قال:

- كم تدفع؟

- لن نختلف.

- لتستمتع الليلة معنا، وغدًا ننطلق.

صـــديقي العزيز، إن كان فندق بارون حلب مشـــهورًا باســـتضـــافته شـــخصـــيات كبيرة عالمية، فإنّ شـقة العضّـــاضـــة أهمّ بكثير، لأنها حسب ما أخبرتني صبية جميلة خصصت لخدمتي بأن هذا المنزل يستضيف شخصياتٍ مهمة سياسية وعسكرية، والكثير منهم يطلبون خدمتها مقابل مبالغ خيالية أحيانًا، وطبعًا كانت تحدثني بالعربية ولا تعرف بأني أعرف اللغة لدرجة أني أســـتطيع أن أفهم كلامها بكل وضوح.

ما أودّ أن أشـير إليه يا صـديقي بأني سـأكون بعد سـاعة من كتابة هذه الملاحظات في طريقي إلى منطقة في حماه، لأني أتوقعُ أنه تمّت زيارة شخص يشبه (برهو) هناك. ستضحك. نعم أعجبني لقب (برهو)، هكذا تصـف العضـاضـة إبراهيم العاشـج، وأنا أعجبني ذلك الوصف. العضاضة سيدة رهيبة، مخيفة، ولكنها ساحرة. إنها البحر، وتحتاج لربّان ماهر مثل برهو. لم أتوقع أنها تعرف المغنية الفرنسية إديث بياف، ربما قرأتني، لا أدري، ولكني أحبّ الجلوس معها كثيرا. أتخيلها مثل ماريانا آلهة الحرية التي رســمها دي لا كروا في لوحته الشهيرة التي تحتفظ بنسخة منها في مكتبك في فرنسا، دقق في تلك اللوحة تلك الفتاة التي تحمل العلم الفرنســي وتقود الثوري والبرجوازي والعامل الكادح، والجندي المنشق عن الملك وتوقه للحرية، تذكر كم كنا نتحدث عن رمزيتها، لماذا هي عارية الصـــــدر؟ ولم الهالة المقدســة في الغيمة التي خلفها؟، وكيف سـلط الضـوء عليها وعلى

الجثث وهي تقودهم إلى الحرية، دقق في ذلك الشخص البعيد حيث تنظر الفتاة، إنه مثل هذا الرجل الغريب الأطوار، تخاف أن يعرقل مسيرتها. وهذا الرجل هو عين الطغاة ويدهم المخربة. سأكتب لك إن كتبت لي العودة مرةً أخرى إلى دمشق، وسأختم رسالتي بكلام خطير أرجو أن تهتم به: "إن كانت تلك اللوحة المعروفة باسم الحرية تقود الشعب، فالعضاضة تقود سوريا".

القصاصة الخامسة

كنت محقًا يا صديقي حين طلبت مني أن أرسل هذه الرسائل إلى عنوانك في باريس عبر رسالة طويلة كنا قد اتفقنا على بدايتها ونهايتها، وكان حرصك في مكانه، لقد عدت قبل أسبوع، ولم يدع لي الرجل الغريب الأطوار مجالًا لأتنفس، في مدينة حماة قال بأنّ له عملًا آخر يقضيه وأرسل معي دليلًا، ولم يكن الدليل عاديًا، وكنت أشعر بأنه ليس من القرباط لأنه كان يتصرف بحذر يفوق أيّ إنسان ينتمي لهم. وكان خبيرًا في كل شيء، والأهم أنه يتقن اللغة الفرنسية، قلت له بأني بدأت أعتقد بأنّ كلّ غجر سوريا يعرفون الفرنسية، واكتفيت بجوابه المقتضب بأنّه تعلم الفرنسية من والده الذي كان دليلًا للفرنسيين، لغته علمية. وكنت أشعر خلال الجولات أنه فعلًا يتتبع أثر إبراهيم ولكن تتبعه للأثر مسحه وطمسه، وساعدني إخفائي لمعرفتي اللغة العربية على فهم كثيرٍ من حواره مع الأشخاص الذين تحدثنا معهم. لقد تأكدت بأن ذلك الصوفي

الذي قتله الضـــابط هو إبراهيم، ولكن لا يوجد معلومات ولا دليل مادي، إلا أني حصـــلت على معلومة مهمة بأن الضـــابط اســـمه عاصـــم التتنجي، وفي تلك اللحظة اكتشـف بأني أفهم العربية، يبدو أنه قرأ لحظة تأثري وإلحاحي على معرفة المزيد، وعدنا تلك الليلة فطلب مني الرجل الغريب أن نعود فورًا، وفعلًا هذا ما حصـــل وقضيت ليلتي عند العضّاضة التي همست لي بالفرنسية أن أرحل فورًا. وأنا الآن أكتب هذه الرسالة لك وهناك ضـجة كبيرة في بيتها. سأرسل هذه الرسالة مع الصّبّية التي تخدمني وأتمنى أن تصلك.

القصاصة السادسة

عزيزي زكريا، هذه القصاصة هي ترجمة للأغنية التي ذكرها النحّات وهي لمطربة فرنسـية مشـهورة تدعى اديث بياف، وإني لأعتقد بأن النحات الفرنسي قد عشق العضـاضـة، أو أنها استطاعت عضـه، وما ترجمتي للأغنية إلا لمعرفتي بأنّ الحبّ نقطة ضـــعفك، ولكن عليك أن تعرف بأنّ الطغاة لا يسمحون بحبّ الأوطان.

يمكن أن تنهار السماء الزرقاء فوقنا

وقد ينهار العالم

لا يهمني ذلك إذا كنت تحبني

لا أهتم

ما دام الحب يغمر صباحي

ما دام جسدي يرتعش تحت يديك

لا تهمني المشكلات

بما أنك تحبني

سأذهب إلى نهاية العالم

سأصطبغ باللون الأشقر

إذا سألتني

سأذهب إلى القمر

سأذهب لسرقة الثروة

إذا سألتني

كنت أنكر وطني

أود أن أنكر أصدقائي

إذا سألتني

يمكنك أن تضحك علي

سأفعل أي شيء

إذا سألتني

إذا كانت الحياة يومًا ما تمزقك مني

إذا مت، ابتعد عني

لا يهمني إذا كنت تحبني

لأنني سأموت أيضًا

سيكون لدينا الخلود بالنسبة لنا

باللون الأزرق، من كل ضخامة

في السماء، لا مزيد من المشكلات

حبيبي هل تعتقد أننا نحبّ بعضنا بعضًا؟

فالله يوحد المحبين!

حين انتهى المستشار من قراءة القصاصات، وبدأت الخيوط تتّضح، وصورة والد عايدة أمامه حين زاره وشعر باضطرابه حين أخبره عن

مســـقط رأســـه، ورفض عايدة غير المبّرر الزواج منه، أدرك تلك الحقيقة.

دسّ القصـــاصـــات في حقيبته، ثم اقتطع ورقة من دفتر ملاحظاته الصغير وكتب " الحياة مجموعة أسفار، كلّ لحظة في الحياة سفر. النَفَسُ أسـفار، ذهاب وايـاب، فكلّ زفرة سـفرة، كلّ شـهقة سـفرة، لها محطة انطلاق ولها محطة نزول. لا سفرة تُكرر أخرى وإن تشابهتا، فاللجوء والهجرة والنزوح والنفي والتشـرد والتسـكع والطرد والرحلات والسياحات كلها تنقلات – طالت أو قصرت – من مكان إلى مكان آخر، كذلك المواجع والمآسـي، كذلك الأفراح والأتراح، كذلك الحربّ والسلم، وكذلك الحبّ ." وضع الورقة داخل الظرف. ثم أمسك هاتفه وفتح الواتس يبحث عن عايدة، ليجد عشرات الرسائل منها، تفتقده، تسأل عنه، فاتصل بها:

- مرحبا

خلال ثوانٍ ردّت عليه:

- أين أنت؟ لقد أقلقتني كثيرًا؟
- سأخبرك حين نلتقي
- أين؟

- عند جسر البوسفور

- مسافة الطريق.

بانتظارك.

أغلق الهاتف وسـقطت دمعة من عينه اليسـرى، وهو يراقب جسـر البوسفور وقد لاحظ بأن هناك تحركات غريبة، ثم رأى جماعة هدى منشـــغلين في حديثهم الذي لا ينتهي، لكن هدى نهضـــت واتجهت نحوه ثم جلست أمامه قائلة:

- الحقائق جارحة.

- هل كنت تعرفين؟

لا. ولكن النحّات كان صـــديقا لنا، ويبدو أنّ البحث قاده إلى مكان لا تريد الحكومة أن يصـــل إليه فشـــعر بخطورة ذلك وكان يراســـل والدي سـرًا في تلك المدّة، وأعتقد أنه اسـتقر عند العضـاضـة برهة، تلك المرأة كانت تملك جيشًـــا من النســـاء تقودهنّ وتقدمهنّ متعة لشـــخصـــيات مهمة وقد تم توظيفها بعناية من قبل الضـــابط وزير الداخلية والمتحكم في كل شيء آنذاك.

ثم دققت به وسألته:

- هل ما سمعته كان صحيحًا؟

- حول ماذا؟

- استقالتك من القضاء؟

- وماذا سمعت؟

- أنك طلقت سيدة من ضابط أمن انتقم منك.

- ليس ذلك تمامًا.

- هل تحبها؟

صمت المستشار، عندها قالت له:

- أيها العاشج. لا زلت تحب بصمت ولا تدافع عن حبك!

كانت الساعة تشير إلى العاشرة والنصف. حين اقترب منها المرافق وقال بصوت مرتبك: انقلاب..

المحطة الأخيرة جسر البوسفور

كأنه زلزال، الناس في حيص بيص، قررت المجموعة المكوث قليلًا بانتظار انجلاء الأمر وانسل المستشار أثناء انشغالهم بالحدث وخرج من المطعم باتجاه جسر البوسفور. كانت حركة السيارات جنونية، فتوجّه نحو شاطئ بحر مرمرة، وقف هناك متأملًا المضيق والجسر منصتًا لموج البحر، وبدأت الذكريات تتداعى عليه فأخذ يحاسب نفسه، ويسألها ماذا قدّم؟ لقد شغلت عايدة أجمل سنوات حياته. واكتشف بأنه لا يعرف شيئًا عن أهله وأنهم كانوا مجرد نزلاء معه في فندق واحد. لم يكن يومًا قريبًا منهم، فتذكر جدته لوالده، وأمّه، وأخواته. وتذكر رفاقه، ثم تذكر الصلاة فهو لم يكن يصلي. وكأنّ القضاء منحه حصانة؛ إلا أنه كان نزيهًا، وبعيدًا عن المشاحنات، غارقًا في قضاياه وكان كل أمر بالنسبة له قضية لها شهودها وفاعلوها ومحاموها. انشغل بداية بهدى ثم انشغل بعايدة. ولم يكن هناك غير هذا الأمر في حياته، وحتى حين قامت الثورة السورية لم يكن فاعلًا أو منفعلًا بقدر ما كان يفكر في كونها قضية طلاق بين حاكم وشعب. وإنها فسدت حين تدخل العوازل، ثم وجد بأنّ الإكراه فاق الحدّ! ولكنه قاضٍ تم تعيينه من قبل رئيس فقد شرعيته لذا فهو فاقد للشرعية حتى وإن استقال من القضاء. ولا يمكن له أن يقبل بأن يكون قاضيًا في دولة ليست في ظرفها الطبيعي. والمرجع الذي سيعتمده هو ذات المرجع الذي تحرك الناس ضده، وهي الآن انتفاضة ثورة، وللثورة قوانينها. لذلك حسم المسألة. وحين هجم المتشددون على القرية كان موقفه منهم الموقف

ذاته. ولكن لا يمكن أن يعمل معهم أو يقاضـــيهم لأن الشـــروط اختلفت. وكذلك رفض أن ينخرط مع شـــباب قريته الذين قاموا ردًا على عصـــبية الآخرين بتبني قوميتهم. إنه الامتحان الكبير للوطن الذي يفقد أبناءه. واكتشف بأنه هرب من ذلك عبر أحلامه، من هي عايدة؟ وماذا تمثل له؟ ولماذا رفضـــت الاقتران به؟ فارق العمر لم يكن مســـألة بالنســـبة لها، وهل كانت تعرف؟ وهل عرفت بعد تلك الزيارة بأن والدها قاتل جدّه؟ فالشـــواهد كلها تؤكد ذلك والنحات الفرنســـي وضـــح كل ذلك. وها هو يريد لقاءها، فهل يمكن أن يحب ابنة قاتل جدّه؟ أيعقل هذا؟

لم يعرف كم مكث أمام البحر، ولكنه حين تحرك كان الانقلابيون يجبرون موظفي مؤســـســـة الإذاعة والتلفزيون على قراءة الانقلاب، والرئيس التركي يتصـــل بإحدى القنوات التلفزيونية دائنًا المحاولة الانقلابية، ويطالب الشـــعب بالخروج إلى الشـــوارع، فلبت الجماهير نداء الرئيس، وها هم يواجهون الدبابات التي أغلقت جسر البوسفور بصدورهم العارية. أما هو فكان بانتظار عايدة ليعرف سبب رفضـها فهناك احتمالات ثلاثة للرفض، الأول أنها تعرف بأنها ابنة قاتل جدّه، والثاني أنها لا تحبه ولا ترغب أن تقترن به، والثالث هي تحبه فعلا ولم تكن تعلم بالحكاية من قبل ولكنها عاقر ولا تريد أن تظلمه معها. هذه مســألة لابدّ من الحســم فيها، ولا مجال للهرب بعد اليوم الطرق الملتوية لم تعد مجزية بعد اليوم، وإزالة الحجارة مهما كان

حجمها من على الطريق أهم بكثير من الالتفاف حولها، فقد قرر اليوم قلع الصخرة مهما كان الثمن.

نظر المستشار إلى ساعته التي كانت تشير إلى الثانية عشرة والنصف، وبالقرب من مدخل الجسر ثمّة ملصق لإعلان عن أوبرا عايدة التي تعرض الآن في اسطنبول، فأخرج من حقيبته البروشور الذي أخذه في محطة المترو، وقال في نفسه أوبرا عايدة انتهت... ومزّق البروشور ثم اقترب من السور ورماه فسقط على الشاطئ، وبدا كجثة لفظها البحر بفعل مصابيح السيارات التي كانت مسلّطة عليه، ثم تابع سيره باتجاه الجسر ووقف أمام مدخله فرأى هناك آلافًا من البشر كيوم افتتاحه قبل أربعين عامًا حين عبرت الجماهير الجسر على الأقدام. ثم سمع بعض الشباب، اهجموا عليهم، امنعوهم، لن يعبروا إلا على صدورنا، واندفع معهم، وهو يقول لا للانقلابات، لا للظلّم، وبدأ يسمع أزيز الرصاص يمرّ من جانبه، ثم رنّ هاتفه، ورأى اسم عايدة، فلم يكترث، وكأن الحشد الذي أمامه أهم، فأخرج القصاصات من حقيبته ورماها في الهواء، كانت مثل نوارس البحر تتطاير على ضفاف الجسر، ثم شعر بحرارة تخترق صدره، ولمح عايدة تلوح له بيدها فتقدم نحوها رغم انه لم يكن على يقين بأنها هي عايدة، وبدأ يرى الأشياء مستطيلة الشكل ثم سقط أرضًا، فصرخت سيدة بالتركية:

- أسعفوا الشابّ.

وضـــعته الســـيدة في حضـــنها، وبدأ يرى النجوم قريبة جدًا، ورأى جدّته، ثم والدته برفقة والده، وبالقرب منهما رأى الأسـتاذ يبتسـم له. وفي تلك اللحظة كان المشـــهد الأخير لأوبرا عايدة، حيث علت أناشيد القدّاس من داخل المعبد بينما عايدة ورادميس يودّعون الحياة وينشدون ما ترجمه الدكتور محمد محمود سامي الحافظ" وداعًا أيتها الـدينـا بمـا فيـك من أفراح وأتراح، وداعًـا يـا أحلامنـا الجميلـة التي تبسـمت لنا في ليال زاهراتٍ بالأماني والآمال، فالسـماء تفتح أبوابها لاستقبالنا في عالم الأبدية لنسمو إلى الربّ القدير، ونطلب الصفح والغفران".

وتبسّم المستشار حين رأى جدّه إبراهيم ضاحكًا وفاتحًا له ذراعيه.

عينتاب ١٥/تموز/٢٠٢٠

الفهرس

المحطة الأولى: مطار عينتاب.....٧

المحطة الثانية: مدرج مطار عينتاب.....٣٥

المحطة الثالثة: الطائرة.....٤١

المحطة الرابعة: مطار أتاتورك.....٨١

المحطة الخامسة: المترو.....٨٩

المحطة السادسة: تقسيم.....٩٧

المحطة السابعة: الشقة.....١٠٥

المحطة الثامنة: بازار اسطنبول.....١١٥

المحطة التاسعة: بيت الشيخ الوقور.....١٢١

المحطة العاشرة: مضيق الفوسفور.....١٣٣

المحطة الآخيرة: جسر الفوسفور.....١٥٥